العالم الثالث

الغــــد

نحـن نصنعــه ... لا ننتظــره

بقلم : محمد مزالي

إن ماساة الانتحار الجماعي التي خططها ودبرها ونفذها في أدغال « غويانا » (يوم 18 نوفمبر 1978) مشعوذ فاسق يدعى « دجيم دجـونس » (1) رئيس طائفة « معبد الشعب » والتي ذهب ضحيتها 914 أمريكي وأمريكية من الكهول والشبان وحتى الأطفال ، من البيـض والسود ، تثيـر أكثر من الاشمئـزاز والاستفظاع والألم : انها مدعاة للتحليل والفهم واستخلاص العبرة .

كيف تحدث مثل هذه الكارثة في الربع الأخير من القرن العشرين ، وفي الولايات المتحدة بالذات ، أي في مجتمع متمدن متقدم ، ضرب الرقم القياسي في الرخاء والوفرة وبلغ الذروة في العلم والتكنولوجيا ، ويعتبره أكثر سكان العالم الثالث النموذج الذي يحسن النسج على منواله للخروج من التخلف ، والمثل الأعلى الذي يتعين السعي اليه والدنو منه لضمان الازدهار الاقتصادي والاستقرار الاجتماعي وتوفير ما يطمح اليه الكادحون من سعادة وهناء ؟..

---

(1) تظاهر دجونس في البداية بانه مصلح اجتماعي متمركس يريد مساعدة الفقراء وقد اتخذ من ماوتسي تونغ قدوة . وعبر عن اعجابه بانجيلا ديفز Angela Davis وبحركة « الفهود السود » وساند الادماج العنصري ونادى باحداث مجتمع غير طبقي .

تقول وكالات الأنبـاء :

... بعض الهاربين قتلهم الحراس . أما الاتباع الذيـن بقـوا بالاكـواخ الخشبية بدجونستاون ، والذين وقع تكييفهم بتمارين انتحارية « بيضـاء » عديدة وتم غسل ادمغتهم واستئصال كل لولب فردى فيهم ، فانهم خضعـوا للامر ، وسمموا اطفالهم ثم انتحروا .

914 أمريكي من مواطني أكثر الدول تقدما في العالم ، يترشفون بدون سبب ظاهر ، حساء الساعة الحادية عشرة القاضي ويقتتلون بالرشاشات . رجـال ونساء واطفال وسط الادغال حيث تتعفن جثثهم المتراكمة . وينظر الضميـر الغربي المذعور الى نفسه في المرآة فلا يتعرف على ذاته . ما هذا الداء الكافر بالنعمة والذى انقض دفعة واحدة ؟

يقول الأستاذ « جورج ديفرو » G. Devereux الذى قضـى كامـل حياته يحفر في أحلك دهاليز سلوكنا الجماعي : « ليس الانتحار ذاته هو الذى يشكل الحدث . انه يكاد يكون منطقيا . لقد كان متفرجو معبـد الشعـب ، باعتبارهم أفرادا ، شبه موتى منذ تخلوا عن شخصيتهم ليضعوا أنفسهم بين يدى « دجيم دجونس » . لقد اختاروا الانصهـار فـي الطائفـة . ولـم يعـد اضمحلالهم البدني الا طارئا من الطوارىء ، بل نتيجة « حتمية » . نحن نعلم أن الموجة العارمة الحالية لوحدة الشعور الزهدية انطلقت من ولاية كاليفورنيا حيث ابتدأ كل شيء بظهور الهيبيين . انهـا أمريكـا طـوائف « المرمـون » و « كويكرس » والتوراة المبعثرة . طوائف « مون » و « هير » و « كريشنا » و « غورو مهراج » وقضية « مانسون » و « العين الثالثة » و « جماهير بيلـي غراهام » Billy Graham المتهلسة ، نشوة عارمة أم بحران حاد ، محدد المكان ، في أمريكا .

لماذا اصيبت اوروبا بهذا الداء بدورها بعـد ان كانت رافضـة ؟ لماذا تترك المجموعات السياسية الصغيرة التى تخلصت من أقنعتها المذهبية ، المجـال للطوائف التى لم تعد تعير اهتماما لأية ايديولوجيا ، بصرف النظر عن جانبها التصوفـي .

يرى « جاك كورتويرت » Jacques Gurtwirt أن رؤسـاء الطوائـف الامريكان ـ بعد المخدرات والحركة السياسية الطالبية العابرة وبعد تفكيك

حركة الراديكاليين السود وبعد التمردات الحضارية التى لم تف بوعودها ـ « يشتغلون » بتحريك أتعس حطام افرزته الثقافة المضادة .

ويقارن « جورج ديفرو » G. Devereux الغزو الحالي للنزعات الشرقية المتصوفة بالنزعات التى شهدتها الامبراطورية الرومانية فيما بين عهدى « مارك أوريل » Marc Aurèle و « قسطنطين » Constantin عندما هزت روما طوائف جاءت من الخارج ومن بينها المسيحية .. ان مجزرة « قويانا » فى نظر « ديفرو » ليست انفجارا مرضيا برز فجأة من الماضى . انها مجزرة عصرية ، مثلما كان أنبياء الشرق عصريين بروما ، بعد « مارك أوريل »

ويتساءل أحد محررى « ليبيراسيون » Libération عما اذا كان الامريكان يحطمون هنا ايضا ، كل أرقام العصرية ، أم أن المجتمع الامريكى هو أعفن المجتمعات .

ان فى الحرية المخيفة ، الحرية التى لم يسبق لها مثيل ، والتى نشهدها اليوم دون ان نعرف كيف نضطلع بها ، ما يبعث على الدهشة .

يقول جان فرنسوا هيلد Jean-François Held (لى نوفيل ابسرفاتور 27 نوفمبر ـ 3 ديسمبر 1978) :

روى لي « جورج ديفرو » قصة الملكة « كونا » Kauna كما عرفتها فى مستهل القرن بعثة المانية بميكرونيزى Micronésie لقد فقدت « كونا » ملكة جزيرة « نكوورو » Nukuoro طفلا صغير السن ، فأمرت بقتل كل الاطفال وباجهاض كل النساء الحوامل حتى يشاركها رعاياها الحداد . ولايبدو أن القبيلة تذمرت من ذلك . كما لم يتذمر اتباع معبد الشعب عندما أمر « دجيم دجونس » قبيلته بان تموت . فمن « نورمبارغ » الى « دجونستاون » مرورا « بعبادة الذات » ، لا تنعدم أمثلة الاستقالة .

وأول سؤال يتبادر الى الذهن هو معرفة الاسباب التى أدت بالمجتمع الامريكى وعدد من الدول الاوربية الى افراز هذا الرهط من الملل والنحل ، والى السماح لهذه البدع الدينية بالانتشار والقيام بنشاطها الشاذ وسلوكها المعتوه! كيف ولماذا تتكاثر الطوائف ويكتسح التصوف الشاذ ضمائر الشباب خاصة!

والواقع ان جماعة « معبد الشعب » التي ينكب اليوم على دراستها علماء النفس والاجتماع والاطباء والسياسيون في كافة أنحاء الدنيا ليست الوحيدة من نوعها . فقد صدر هذه الايام لباحثة فرنسية تدعى « فانـي كورنيـولت » كتاب بعنوان « فرنسا النحل » (2) ذهبت فيه الى أنه يوجد اليوم في فرنسا وحدها حوالى 300 نحلة ! ومن أشهرها شرذمة مـون (3) وطـائفة القمـر ، واطفال الرب (4) وأتباع كريشنا وغيرها وقد ظهرت أكثريتها في الستينات واجتاحت موجتها الولايات المتحدة وبلدانا كثيرة في الغرب فمدت أجنحتها وانشات فروعا نشيطة لها وجهزت أجهزة فعالة للدعاية والتبشير ومقاومة المناوئين والجاحدين .

وقد يتبادر الى الذهن أن زبائن هذه الطوائف هم من البسطـاء الجهلـة او المحرومين الحالمين ، الا أن ما صدر هذه الايام من مقالات ودراسات ينفي هذا الرأي . ويبدو حسب ما تؤكده الباحثة «فاني كورنيولت» أن 75٪ من «المريدين» شباب في العقد الثاني والثالث من العمر وأن مستوى الاكثرية الذهني والثقافي فوق المتوسط . وتفيد دراسة قامت بها مؤسسة « سوفريس » Sofres الشهيرة بعمليات سبر الآراء في فرنسا حول أتباع نحلة Ordre Rose - Croix Armorc أن 47 ٪ من الرجال و 42 ٪ من النسوة يحملون شهادات جامعية ، وأن 22 ٪ ينتسبون الى المهن الحرة . أما أتباع « مون » فان نسبة المثقفيـن منهم ثقافة علمية مرتفعة !

لذلك تكاد تجمع تحاليل علماء الاجتماع الامريكيين والاوروبيين وتحـاليقهم على أن جموع هؤلاء « المريدين » ينتدبون من بين التائهين المحرومين رغم ما توفر لهم « نعمة مادية ورخاء عيش ، من المسحوقين بناطحات السحـاب ، الغشاة أبصارهم بأنوار المدينة ، الصماء آذانهم بصخب الشارع ، المتهافتين بالرغم عنهم على الاستهلاك ، المنهوكين بضغوط الاقتصاد ونواميس الجدوى والانتاج ، المتهيبين ، ليل نهار ، من عقارب الساعة تجرفهم الى مآل مجهول

---

(2) « La France des Sectes » - Famy Cornuault - Ed, Tchou

(3) نسبة الى الأب « مون » وهو راهب هندوسي من كوريا الجنوبية أصبـح له اليوم آلاف الأنصار في فرنسا وخارجها .

(4) The Children of God وقد أسسها الامريكي اليهـودي الأصـل « ديفيد بيرق » سنة 1969 .

وتجرى بهم نحو مصير محتوم ، فهم مستلبون من أنفسهم ، مغتربون عن ذاتهم ، إنهم متهمون وضحايا فى آن واحد .

ان سلوكهم هو الذى يسهل مهمة « مشائخ » هذه « الطرق » المعاصرة ، انه « العبث » L'Absurde بالمعنى الفلسفى للكلمة المتمثل فى محاولة الافلات من « نزعات الغرب المادية ومن العنف والسرعة » كما تقول جريدة « الابزرفر » الانقليزية ، والعودة الى الطبيعة والبساطة واساليب العيش التقليدية ورفض النظافة والتعليم والكفر بالعمل المنظم والتمرد على الجندية والتحلل من الالتزامات والنظم الاجتماعية والازدراء بواجبات المواطن نحو المجموعة القومية واللواذ بالانتحار الذى هو هروب من الواقع الاجتماعى (5) وهو أخيرا العودة المنحرفة المتحجرة الى الدين .

جاء فى تصريح أفضى به مؤخرا جان بول بور J. B. Bourre الاخصائى فى البدع الدينية ومؤلف الكتب العديدة ، حول أسباب انتشار البدع بشكل خاص فى الولايات المتحدة وفى البلدان المتقدمة عامة ، قوله :

« ظاهرة البدع فى الولايات المتحدة تعود فى جوهرها الى التقدم التكنولوجى الضخم الذى حققه هذا البلد ، والى الدور الذى يلعبه على الصعيد الدولى . فالانسان الاميركى يشعر أن حريته زائفة وانه مجبر على السير وراء آلة اخترعها . فالنظام الامريكى بتعقيداته يتجاوز قدرة الانسان بعدما أفقده انسانيته . هذا الانسان المسحوق يتساءل : وماذا بعد ؟ وبعد عجزه عن ايجاد الجواب ، عن اعطاء معنى لوجوده ، يتوجه نحو جمعية دينية ، نحو المخدرات ، أو يتحول الى انسان هامشى ، فاقد الوعى بشكل دائم . ومن خلال البدع الدينية يشعر الانسان بواقع آخر ، بانه يحقق بعض انسانيته من خلال مشاركته الآخرين فى حياتهم . يتمسك بهذا الواقع الجديد ، ويظل متمسكا به حتى من خلال الانتحار الجماعى . فهو يخاف العودة الى مجتمع رفضه ، الى حضارة كشف زيفها والى استغلال يزداد يوما بعد يوم . وسواء كانت هذه البدع محركة ام لا ، فانها تعبر فى جوهرها عن صرخة عميقة أمام فراغ الغرب وحضارته ، وعن أزمة وجود ليس من السهل تخطيها » .

---

(5) ان أعلى نسبة فى الانتحار تسجل اليوم فى السويد .. البلد الاشتراكى المتقدم المزدهر !!

اما عن انتشار البدع بفرنسا فيؤكد الباحث « ج. ب. بور » ان الظاهرة لم تصل بعد الى الدرجة الامريكية . غير أن ثمة جمعيات دينية فى فرنسا منها ما هو مستورد من الولايات المتحدة بالنسبة الى التيارات الروحانية (مون ، كرشنا ...) ، وما هو مستورد من انقترا بالنسبة الى التيارات الشيطانية ، وهى احدى ظواهر المجتمع الانقليزى المهمة » .

ويضيف : « منذ خمس سنوات تقريبا بدأ الحديث عن بدع دينية فى فرنسا مع « مون » و « أبناء الآلهة » و « الكنيسة العلموية » ... بعدما قدم الى فرنسا بعض المبشرين لنشر التعاليم الجديدة . اما البدع الشيطانية فلم تنتشر فى فرنسا على أيدى مبشرين ، بل قام فرنسيون بالتقاط البدع الانقليزية وتأسيس جمعيات فرنسية مشابهة . أعرف احدى الجمعيات الشيطانية التى تملك مركزا قرب باريس ، وتضم أكثر من 300 عضو . هؤلاء يجتمعون بشكل دورى لتأدية عباداتهم ، ويقومون بذلك بعد ان يتعروا شاهرين سيوفا . وقد انشأت هذه الجمعية فرقة لانقاذ الناس من الاشباح . فاذا ما شعرت يوما ما أن منزلك مسكون بالاشباح ، ما عليك الا ان تتصل بهذه الجمعية فى أية ساعة شئت من الليل ، وما هى الا لحظات حتى تصل اليك فرقة منهم تقوم بطرد الاشباح من منزلك فى مقابل 100 فرنك فقط . فى هذه الجمعية يدفع العضو بين 300 و 400 فرنك كاشتراك فى الشهر » .

ولما سئل كيف يعيش هؤلاء أجاب :

« بشكل عام يوجد مركز يجتمع فيه كل الاعضاء ، وفى بعض الاحيان تحدث الاجتماعات فى منزل « المعلم » . فى المركز معبد مبنى فى الوسط ، وخلال القداديس السوداء تتم قراءة فصول من الكتاب المقدس الذى كتبه « المعلم » بوحى من الشيطان . وفى بعض الاحيان تشترى الجمعية مزرعة كبيرة فى ضاحية بعيدة نسبيا تجرى فيها أغلب الاحتفالات الدينية (عن « النهار العربى والدولى » ، 4 ديسمبر 1978 ، ص 19) .

وهكذا يستغل نفر من الشواذ والمعتوهين والمحتالين ضياع هؤلاء المسحوقين الباحثين عن سلوى او ملجأ أو حماية معنوية ، المسافرين – فى الواقع (6)

---

(6) أذكر سفر آلاف الشبان من أوربا وأمريكا الى « كطمندو » عاصمة النيبال NEPAL بحثا عن صيغة من صيغ الانعتاق !

أو فى الخيال ـ الى أرض بعيدة ضائعة اسمها الحرية ، المنتظرين مهديا يرعاهم ويرسم لهم طريق السعادة اذا ما اتبعوه .. فيخاطبونهم باللغة التى ينتظرونها ويخدرونهم بسحر الكلمة ، فيشعرون ان رياح الابدية تعصف فى رؤوسهم ، ثم تتهاوى ارادتهم وتنهار بقساوة الطقوس وأعباء الانضباط ، ولا يزالون بهم فى هذه العملية المعروفة بغسيل الدماغ ـ أو انبساط الدماغ ، حسب تعبير ابن الجوزى فى كتابه « تلبيس ابليس » (7) حتى يعزلوهم ـ كما يقول الاخصائى الامريكى « لفتون » عن العالم الخارجى ويجعلوهم سريعى التأثر بتعاليمهم ، وتتوالى جلسات الاتهام والاعتراف والنقد الذاتى الى أن يتوهموا ان الطائفة التى ينتسبون اليها ستسحقهم اذا عصوا لرئيسهم أمرا أو حاولوا التمرد عليه او الفرار منه .

صرح « ستيفن » ابن « دجونز » زعيم طائفة « معبد الشعب » ، بعد مذبحة (دجونستاون) ، أن أباه قد ظهرت عليه بشدة فى السنوات الاخيرة مظاهر

---

(7) « وكانت سيرة (الحسن بن الصباح) فى دعائه ألا يدعو الا غبيا لا يفرق بين يمينه وشماله مثلا ومن لا يعرف أمور الدنيا ويطعمه الجوز والعسل والشونيز حتى ينبسط دماغه ثم يذكر له حينئذ ما تم على أهل بيت المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وعليهم من الظلم والعدوان حتى يستقر ذلك فى نفسه ، ثم يقول اذا كانت الازارقة والخوارج سمحوا بنفوسهم فى قتال بنى أمية فما سبب بخلك بنفسك فى نصرة امامك فيتركه بهذه المقالة طعمة للسيف ، وكان ملك شاه قد أرسل الى هذا ابن الصباح يدعوه الى الطاعة ويتهدده ان خالفه ويأمره بالكف عن بث أصحابه لقتل العلماء والامراء فقال فى جواب الرسالة والرسول حاضر الجواب ما تراه ثم قال لجماعة وقوف بين يديه أريد ان أنفذكم الى مولاكم فى حاجة فمن ينهض لها فاشرأب كل منهم لذلك فظن رسول السلطان أنها رسالة يحملها اياهم فأومأ الى شاب منهم فقال له : اقتل نفسك فجذب سكينة وضرب بها غلصمته (رأس الحلقوم وهو الموضع الناتىء فى الحلق .) فخر ميتا وقال لآخر ارم نفسك من القلعة فألقى نفسه فتمزق ثم التفت الى رسول السلطان فقال : اخبره ان عندى من هؤلاء عشرين ألفا هذا حد طاعتهم لى وهذا هو الجواب فعاد الرسول الى السلطان ملكشاه فأخبره بما رأى فعجب من ذلك وترك كلامهم وصارت بأيديهم قلاع كثيرة ثم قتلوا جماعة من الامراء والوزراء » .

(ابن الجوزى البغدادى المتوفى سنة 597 هـ . (تلبيس ابليس) 1928)

جنون العظمة وكشف عن جرائم ابيه فقال انه أذن مرة بجمع بعض الاطفال وتقييدهم بالجبال ثم ألقى بهم داخل بئر عميقة وهم أحياء ! (عن واشنطن بوست)

ويقول ج. ب. بـور : « وأذكر أيضا حادثة تلك الفتاة التى كانت تنتمى الى جماعة « الاخوة البيضاء » التى لاتزال تقوم بنشاطها ، ومركزها قريب من مدينة فريجيس الفرنسية . هذه الجماعة تملك مساحة شاسعة من الارض ، وتقوم عقيدتها على عبادة الشمس . كل صباح يفيق الجميع من النـوم قبـل طلوع الشمس ، يرتدون ثيابا بيضاء وينتظرون الآلهة لتأدية صلاتهم . فى أحد الايام قام « المعلم » بتأنيب هذه الفتاة قائلا لها انها لا تستحق أن تكون من عباد الشمس . فى اليوم التالى امسكت الفتاة بسكين وغرزتها بقوة فى عينيها بينما كان الجميع فى ثيابهم البيضاء يؤدون الصلاة . انها أرادت ، بفعلها هذا، حرمان نفسها بشكل نهائى رؤية الشمس . فالعينان بالنسبة اليهـا كانتـا ترمزان الى علاقتها بالآلهة ، وتأنيب « المعلم » لها كان يعنى رفـض الآلهـة لايمانها ، ولذلك لجأت الى هذا الحل » (عن « النهار العربى والدولـى » ، 4 ديسمبر 1978 ، ص 19) .

ألا يذكرك ذلك بما حكاه ابو العلاء المعرى عمن سافر الى اليمن وقال ان بها فى عهده جماعة « كلهم يزعم أنه القائم المنتظر ، فلا يعدم جباية من مال يصل بها الى خسيس الاعمال » ؟

ألا تتذكر بيت أبى العلاء المعرى :

أقـال الله حين عبدتمـوه كلوا أكل البهائم وارقصوا لـى ؟!

ثم انى لا إخالك ، وانت تتأمل فى تطـور الانسـان وتقدمـه واستعـداده لمواجهة عام 2000 ، الا راجعا بخيالك الى عهود انقضت وطويت طيا فى ذاكرة انسان القرن العشرين الذى خرج من الظلمات الى النور ، فتمـر بـك قلعة « المَوْت » وما كان يأتيه فيها سيدها فى القرن الثالث عشر (1271) من تخدير الفدائيين ببنج الحشيش . انه « داعى الدعاة » يهىء بستانا ويحيطه بالجوسق والقصور فلا يدخله الا من انتقاه ليكون من جماعة الحشاشين . « وكانت على مدخل البستان قلعة عظيمة يعجز اى جيش فى الارض عن فتحها ، وليس لها

مدخل آخر . وكان يستخدم في بلاطه عددا من الغلمان الذين يميلون للقتال ، تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين ، وكانت طريقة ادخالهم الى البستان ان يأتي بأربعة منهم على حدة او بستة او عشرة ، ويناولهم قدح شراب خاص حتى يناموا فاذا ناموا أمر بحملهم على الاكتاف ونقلهم الى البستان فاذا افاقوا وجدوا أنفسهم فيه وكانوا حين يفيقون ويرون انفسهم في ذلك الموضع البهيج الرائق يحسبون انهم في الجنان وقد أحاطت بهم طائفة من الحور والجواري يسايرونهم فتمتلىء نفوسهم لذة .. فاذا اراد الشيخ الاكبر (داعي الدعاة) أن يفتك بأمير ما ، قال لاحد غلمانه : قم الى فلان اقتله . ومتى رجعت تحملك ملائكتي الى جنة النعيم واذا مت دون ذلك ارسل ملائكتي اليك يعودون بك الى الجنان .. » (8)

نعم تلك هي العصور الظلماء ، كما يحلو للكثير ان يلوك ذلك ، اما اليوم وقد انحسرت العقلية الخرافية وادعى اوغست كومت A. Comte ان عهد الوضعية حل وعم الكون ، وانتشرت العلوم الصحيحة وسيطر الانسان على الطبيعة ، ما عسى ان نقول وبماذا نفسر ما حدث ؟

ولنستعرض على سبيل المثال بعض ما قاله في هذا الصدد نفر من الصحافيين والدارسين في الغرب المنتسبين الى اليمين والى اليسار على السواء .

في جريدة « هبدو ت. س. » Hebdo T. C. التي خصصت ملفها الاسبوعي للطوائف يلاحظ جورج باقي G. Bague، ان كاليفورنيا هي المكان الذي تكثر فيه الكنائس والطوائف ، ذلك ان التسامح أوفر فيها مما هو في غيرها من البقاع ؟ ربما .. ولكن ايضا لانه لا يوجد شيء بعد كالفورنيا . هذه الولاية التي هي في اقصى الغرب ، توجد ايضا في طرف الحلم الامريكي . عندما تخيب حياة المرء في كالفورنيا فليس له ما يصنع ولا ما يؤمل ، باستثناء ان يوكل امره لمن يؤكد له قرب قدوم اليوم الذي يعود فيه الناس جميعا الى ارض الميعاد الامريكية ليسود فيها كالالاه باعتباره هو النخبة . ليس لك ما تصنع الا ان تغمض عينيك عن الواقع الخارجي وقد اصبح لا يطاق ، وان تضيع وسط الجماعة وان تغرق معها في الليل والموت . » ثم يختم مقاله

(8) الدكتور حتى فيليب . أدورد جرجي .. تاريخ العرب . ج 2 . 537 ص. ط. 2 . 1953 دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع .

قائلا : « هكذا تنتهي « الاديان » الضالة . ان جنون انبيائها يبعث بهـا الـى الطين الذى جبل منه الانسان » .

ويتساءل « كلود بونجون Claude Bongean في مجلة « لوبوان Le Poin بخصوص شخصية « دجيم دجونس » من أى أعماق المجتمع ما بعد الصناعى ، برزت هذه الآلهة الوحشية ؟ » ثم هو لا يجيب !

ويقول مراسل « فيغارو ماقازين » Figaro Magasine بنيويورك :

« لم تكن فى الخمسينات صورة الحلم الامريكى المتمثل فى اكتسـاب دار جميلة وفى انجاب اطفال وسيمين وفى امتلاك سيارتين ، وقشدة مثلجة فى كل صحن ، لم تكن هذه الصورة مهددة الا من قبل وحوش خرافية من اصل نباتى او حيوانى : نمل عملاق أو أشجار خانقة ، ولكن ذلك لم يكن مجسما الا فى السينما . ثم جاء « تشارلز مانسن » Charles Manson ومعه كلمات الحب المكتوبة بالدم . وقد نزل الستار على عيد الزهور فى صيف الهيبيين . لقد أزاح المسيح الدجال غطاء صندوق باندورا الكالفورنية .

وفى طرف الحلم الامريكى نعرف افتتان بعض الكواكب السينمائية مثـل « كيم نوفاك » Kim Novak بالشعائر الشيطانية ، ولكن ذلك لا يتجـاوز عرافة الحى . وها هو ذا الوحش البارز فجأة من الصحراء مع اتباعه ، ينفخ ريح العدم » ان تشارلز مانسون هو الذى « بعث من جديد كابوس اللامعقول وموجة التقنيات الروحانية والرفاه الجسدى » .

وتذكر « جاكلين ريمـى » Jacqueline Rémy و « الان دى بننستر » Alain de Penanster في مجلة « الاكسبريس » ، قاتل « شارون تيت » SharonTat ليبينا أن هناك طوائف فى الولايات المتحدة وفى بريطانيا تنتسب اليه . ويقولان : « ان الطوائف تطمئن من تجلبهم باعطاء الموت معنى ، انها تخلصهم من عقدة الذنب ، اذ تحيط الاعتراف بالاخطاء وتسليط العقوبات بجملة من الطقوس .. ان « دجيم دجونس » برفضه مواجهة ما تسميه الطوائف بالتفتيش (الاخلاق ، الشرطة) ظن فى بحرانه انه يعيد الاعتبار لقضيته وأنه يخلق اسطورته .. وقبل ان يقتل وقبل ان يموت صاح « دجيم دجونس » أماه . أماه . » ، الأم الكونية التى تبرر كل شىء . ان منتحرى معبد الشعب

ادركوا ـ عن صواب او عن خطأ ـ ان الموت آخر فرصة تتاح حتى لا تنحل طائفتهم وحتى يبقوا عالقين بالخيال الجماعي » .

ويقول « جان فرنسوا هيلد » Jean François Held فى مجلة « لى نوفيل أبسرفاتور » استنادا الى تأملات الاستاذ « جورج ديفرو » G. Devreux المختص فى التحليل النفسى العرقى ومدير مدرسة الدراسات العليا :

« لقد رجت كالفورنيا فعلا شجرة العادات المكتسبة حتى كسرت اغصانها . مراجعة كل شىء ، محاولة كل شىء . ولكن هذا التنظيف ، واعادة النظر الواسعة فى العادات ، تمس فى الكثير أو فى القليل مجموع العالم الغربى ، حيث يرتعش اليقين الآلى الذى تجاوزته الاحداث . ان الاتصال بين البشر ردىء والا لما تحدثوا عن التبليغ بهذا الاطناب » . ويؤكد الكاتب ان ما حدث فى « دجونستاون » ليس حادثا بل علامة ، مستشهدا بالسيد « ديفرو » الذى يتساءل : « هل من قبيل الصدفة ان يتحدث الذين يحتلون الصف الاول فى الساحة الفكرية الباريسية حديثا لا يفنه البتة ، حديثا خاليا من كل محتوى بقدر ما هو محرك للعواطف » (انظر جريدة لوموند 1978/11/29) .

ان اطنانا من التحاليل السياسية والنفسية والاجتماعية ظهرت وستظهر فى الاسابيع القادمة حول قسوة العصر وارتباك الشباب وحول الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية والبروتستانتية وشعور الناس بتخلى الرب عنهم ..

وسيردد نفر من القانعين القاعدين على سبيل التسلى والتعزى والتصبر قولة الفيلسوف الالمانى شوبنهاور : « ان البشر كالقنافد فى ليلة قارسة البرد ، اذا تقاربوا جرح بعضهم بعضا واذا تباعدوا ماتوا بردا ! » (9)

أما نحن ، فبوصفنا مسؤولين ومربين ، نؤمن بالفعل وبقدرة الانسان على التجاوز وهو الذى كرمه الله وميزه بالعقل عن الحيوان، وهو الذى حمل الأمانة بعد ان عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ، ولو

---

(9) اذكر فى هذا الصدد القولة الشعبية عن المعز ـ لا عن القنافد ! ـ : اذا قربت تناطحت واذا بعدت تصايحت !

ظلم نفسه بذلك وجهل ما ينتظره من صعوبات ، لا نقنع بتحليل بعض علماء النفس او الاجتماع ، « الفرائجية » وأحيانا « الشمائتية » ، بل نسعى الى الفهم والى العمل فى آن واحد ونتحلى بالشجاعة لنصدع بما نراه حقا وخيرا وصلاحا للفرد والجماعة .

إن العالم أصبح يفتقر اليوم الى الروحانيات ، وان البشر ساعون الى فك لغز الماورائيات ، ولم تفد العلموية فى ذلك شيئا بل انها تضافرت مع سيطرة الاقتصاد فى العالمين الراسمالى والماركسى على السواء ، لمضاعفة قلق الانسان واطلاق العنان لأنانيته وتغليب ما فطرت عليه نفسه من فجور على ما ألهمته من تقوى .

ونحن فى العالم الثالث ، والعالم العربى الاسلامى ، خاصة ، ملهوفون الى تحقيق النمو ـ وحق لنا ذلك ـ لنوفر الازدهار والكفاية ، غير ان تفتحنا على الغرب لم يمكنا فحسب من التكنولوجيا ووسائل العمل والحياة الجديدة والخبرات الضرورية ، بل اعشت أضواؤه أبصارنا وبينما نفرك أعيننا ولا ندرك أين نحن من حضارة الغرب وأسلوب حياته ، تنفث فى وجدان اجيالنا الصاعدة وفى عقول كفاءاتنا العلمية والادبية الناشئة سموم هذه الحضارة من جانبها السلبى الذى اكتفينا فى هذا المقام بذكر شهادات بعض أقطاب التفكير والتحليل فى الغرب عنها ، حتى لا يقال وحتى لا يقول بعض التائهين حضاريا فى ديارنا اننا متعصبون او مصابون بحنين الى الماضى ، بل حرصنا على « أن يشهد شاهد من اهلها ! » .

إن هذا الشذوذ والانحراف والانحدار الى الحيوانية والشهوانية والشعوذة تصوره الافلام والمسلسلات التلفزية ويمثله المسرح ويعبر عنه الأدب وهى تستهلك جميعها بحجم زادته الوسائل السمعية البصرية نجاعة خارقة ونسأل انفسنا ماذا فعلنا لوقاية ابنائنا وتلاميذنا من دون ان نرجع بهم الى الوراء فيكاد الجواب ان يكون صفرا ضخما !

والأدهى والأمر من ذلك كله أن يكون رد فعل بعض الناس فى اوطاننا الانطواء على النفس والتعصب الدينى والانغلاق الحضارى ، وأن يستغل بعض المشعوذين هذا الشباب الباحث عن الاستقرار النفسى استغلالا سياسيا او اقتصاديا كما كان يفعل شيخ الحشاشين وكما فعل دجيم دجونس فى ادغال غويانا وكما لا يزال يفعل آلاف الدجالين والمحتالين فى كل مكان .

والسؤال هو كيف نكون طرازا جديدا من الشباب صلب العود ، قوى الشكيمة ، فولاذى الارادة ، وعزيز النفس ؟

وعلى كل فهناك بعض ملاحظات من شانها أن تهدينا الى تصور الجواب :

ـ إن فى استيراد حضارة الغرب جملة وبدون تمييز استيرادا لهمومه وضياعه وبؤسه الفلسفى .

ـ إن التقدم العلمى والسيطرة التكنولوجية والتفوق الصناعى ـ وان كانت ضرورية كلها ـ فهى لا تكفى وحدها لضمان سعادة الانسان ، ولو كان ذلك صحيحا لما حدث ما يحدث يوميا فى كل بلاد الغرب من مآس وفجائع .

ـ إن العقلية الخرافية وجدت فى الماضى وهى موجودة اليوم ، وتعايشت معها العقلية العلمية والوضعية فى كل زمان ومكان ، فلا تفوق لأمة على أمة فى هذا المضمار ، فلكل منها ، متقدمة كانت أو متخلفة ، دراويشها واسوياؤها ، سفهاؤها وعقلاؤها .

ـ إن الدين الاسلامى دين العقل والعقيدة معا ، وقد نهى عن البدع ومجد العقل وحرض على الاجتهاد وليس هو مسؤولا عن الدجالين الذين يتظاهرون به ويدعون الانتساب اليه .

ـ إن التفتح لا يعنى الانفتاح بل ان الاخذ من الغير أو الاقتباس منه لا يكونان الا بالاستناد الى سلم قيم ذاتية وبالرجوع الى ايديولوجية أصيلة تزيد شعور الشباب بأنفسهم ، وتغرس فيهم الايمان بمستقبل جديد يساهمون فى صنعه ويعتزون بالعيش فيه .

ـ لا يمكن ان تعتمد هذه الايديولوجية على القيم المادية وحدها ، فلا المال ولا رفاهية العيش ولا الجاه ولا السلطان بقادرة وحدها على الفوز بمعنى الحياة واكسابها مذاقا ونخوة .

ـ إن انحراف العقيدة ـ وكذلك الانحراف عنها ـ كلاهما يقتل ويتلف ما كان مفروضا ان توقظه هذه العقيدة فى الانسان من معانى الحرية والسمو والعظمة والتجاوز والحب .

ـ ان طرق الوصول الى التقدم عديدة ، انها تختلف باختلاف عبقريات الشعوب وطرافتها واحترامها لنفسها وحزمها في معالجة أمرها . وان عكس ذلك معناه بقاء الامبريالية والضياع وتقدم التخلف ان صح التعبير (10) .

ـ إن الغد لم يعد ممكنا ولا جائزا أن ننظر اليه ولا ان ننتظره بل علينا ان نصنعه ، أن نكيفه بحسب آمالنا وطموحنا الى العدل والمساواة والاحترام المتبادل والاخوة (11) ، فلا هيمنة لحضارة على أخرى ولا تفوق لمعسكر ايديولوجي او اقتصادي على آخر ، انما لكل شعب مصيره ومصائر شعوب الدنيا متضامنة يجمعها جدل خصب خلاق ، به تكون مغامرة البشرية في هذه الحياة الدنيا .

ـ وهل من وظيفة أخطر بل هل من رسالة أنبل من رسالة الكاتب (أو الشاعر أو الفنان) كما ذكرنا بها جوريس Jaurès في مقام الحديث عن تاستوى Tolstoï عندما قال يوم 10 فيفري 1911 : اننا معشر السياسيين ننسى .. أما تلستوى (الكاتب) فهو يذكرنا بمن نحن ! انه يعيننا على الرنو باعيننا الى السماء ، والظفر من جديد بمعنى الحياة »

ـ وهكذا لا تقوم الحضارة على العلم والتكنولوجيا فقط بل سيبقى الشعر ما بقي الانسان حيا خافق القلب ، مضطرم الجنبات باللهيب المقدس .

ـ إن هذا الرأى بل إن هذا الموقف قد يطمره ركام الحياة العصرية الصاخبة وغثاء ذوى « النفوس الضيقة أو الصغيرة كما يقول أبو الطيب المتنبى » Les âmes etroites وتضاحك المنافقين والماديين .. ولكنه سيظل جمرة تحت الرماد ما بقي الانسان !

محمد مزالي

---

(10) Développement ou saus - développement !

(11) فيصح هكذا أن نقول : إن غدا لصانعه قريب !

قصيدة استطلاعية

شعر : عبد القادر شرود

آمنت بأنك موغلة ،،
فى صدرى الناحل كالخنجر
كالحزن الموغل فى قلبى ،
مذ كنت وليدا لا يشعر
مذ كنت بمهدى مذعورا ،
فى ليل ريفى ممطر
مذ كنت وليدا منطويا ،،

فى ثوب بال لا يستر
فى ثوب باللوعة يقطر
فى ثوب الحزن ،، ولا أشعر..

●

لكنى الآن ، بقافيتى ،
بهمومى ،
باللهب الأخضر
بشفاه ضارية تشدو ،
بلغات الريح ،،، ولا تفتر ،،

بفؤاد ، حزنك يسكنه ،
كالدرة فى الصدف الأسمر ،
آمنت بأنك موغلة ،

فى صدرى الناحل كالخنجر ،
كعذاب الجرح ، وهل أكثر ؟
كظلام الظلم ، وهل أكثر ؟

●

الحزن ،، أحب كثافته
كعريش الدفلى المخضوضر ،
والجرح أقدس نازفه
كالنبع على شفة العنبر ،،
والرعد ، يعلم قافيتى
أن تنطق بالغضب الأكبر ،
وبحبك ، أبقى يا بلدى
وحدى أتدفق كالأنهر ،،

●

ولأجلك ـ تونس ـ ملهمتى ،
اتحدى تيار الأعصر ،
واغنى الحزن بقافية ،
أحلى فى الطعم من السكر ،
وأمر ، أمر ، من الدفلى ،
تتنبأ بالمطر الأحمر ،،،

●

(فى يوم كنا نحسبه ،
عصرا ، فى الريف ، ولم نشعر
مطر ، ورياح ضارية
مطر ، ورياح تتضور ،،
وأنا فى مهدى ، تأخذنى
يا تونس ، ملحمة أكبر ،،،)
آمنت بأنك موغلة ،،
فى صدرى الناحل كالخنجر ،
أعلنت النشأة غضبانا ،
غضبان كعاصفة تنذر ،
بالطمى وبالمطر الأحمر ،،

●

وسكت ، سكت ، ولم يجد ،،،
فنطقت بقافية الرعد ،
وحملت الريح على كتفى ،
وبحار الكون على زندى ،
فأنا لا أخشى ـ ملهمتى ـ
أن أعلن معركتى ،،، وحدى ،،

●

يا عاصفة الشعر اشتدى
احتدى
امتدى
امتدى

●

حطى الدنيا مدرا عندى ،،

●

إن مت سجينا لا بزغت
شمس الحرية من بعدى ،،،،

عبد القادر شروده

من مشاكل الجامعة في عالمنا الاسلامي

معلم محمد الفاضل الجمالي

ان معظم الشعوب التى يتكون منها عالمنا الاسلامى بدأت تحقق استقلالها(*) السياسى منذ الحرب العالمية الثانية أى منذ نحو من ثلث قرن .

وأول ما خطر ببال المسؤولين الواعين من ابناء هـذه الشعـوب بعـد أن استقلت سياسيا تحقيق نهضة هذه الشعوب والقضاء على التخلف .

وأهم وسيلة لذلك تأسيس المعاهد العلميـة والفنيـة العليـا والجامعـات وتطوير الجامعات التى خلفها الاستعمار . فالمطلوب من الجامعات أن تعد الرجال والنساء الذين يقومون برفع مستوى الشعب وتجديد أو تصحيـح أسـاليب حياته الروحية والخلقية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية والفنية . ولا نشك فى أن العديد من الجامعات فى عالمنا الاسلامى أدت وما تزال تؤدى خدمات جلى فى هذا المضمار .

وإن ما نرمى اليه فى هذه الكلمة هو الدعـوة الى التكـامل والنجـاعة على أسس الشمول والتوحيد والانسجام والتطور الى الاحسن من جهة ومجابهة ما يعترض جامعاتنا الاسلامية من عقبات ومشاكل فى سبيل تحقيق اهدافها من جهة أخرى . وكل ذلك يتطلب توعية المسؤولين والمفكرين من ابناء الامة وإقناعهم بضرورة الاصلاح والتجديد فى بناء الجامعة الاسلامية .

(*) ألقيت فى « الملتقى الثانى عشر للفكر الاسلامى » المنعقد فى (الجزائر / باتنة) من 7 الى 14 سبتمبر 1978

هذا وإن جل ما سأبديه من آراء وملاحظات هو ثمرة خبرة شخصية تزيد على الخمسين سنة في حقل التربية والتعليم والاطلاع على العديد من الجامعات قديمها وحديثها في كل من آسية وأروبا وأميركا .

إن معظم المشاكل التي تجابهها جامعاتنا في العالم الاسلامي ناجمة في نظرنا من أحد العوامل التالية :

(1) نسيان أو اهمال تراثنا الثقافي والتربوي الحي بما في ذلك ديننا وآدابنا ولغتنا القومية وتقاليدنا الاسلامية الصالحة في طلب العلم وتكريم العلماء .

(2) اقتباسنا النظم الجامعية للبلاد التي كانت تسيطر علينا اقتباسا شكليا من دون مراعاة كافية لظروفنا واحتياجاتنا الاقتصادية والاجتماعية ومن دون ادراك ان بعض هذه النظم قد اصبح مرفوضا حتى في البلاد التي جاءتنا منها .

(3) تيارات سياسية وعقائدية أخذت تغزونا كما تغزو العالم في كل مكان .

(4) ضعف الامكانات المادية والتربوية التي يحتاج اليها البناء الجامعي الصحيح . أو وفرة في الثروة قد تفسد حياة الطالب الجامعية وتلهيه عن طلب العلم .

(5) الاستعجال في التوسع والتضحية بالكيفية من أجل الكمية . والاكتفاء بالظواهر وبالالقاب على حساب المستوى العلمي والسمو والابداع .

وقد ينتج عن ذلك ان الجامعة الاسلامية التي يراد منها ان تصبح القوة البناءة الدافعة في حياة الامة قد تخرج أفرادا يحملون معاول الهدم والتخريب للذاتية الاسلامية وللكرامة الانسانية وما تتطلبه من حرية وعدالة وحق في الحياة والامن والطمأنينة .

ولما كان الامر على جانب عظيم من الخطورة أصبح من الضروري أن نضع اصبعنا على مواطن الداء في بنائنا الجامعي ثم نبحث عن وسائل الشفاء . وها نحن فيما يلي نستعرض أهم ما يخطر لنا من تشخيص للمشاكل التي قد تجابه العديد من الجامعات في عالمنا الاسلامي :

مشكلة الاتفاق على الهدف :

ربما كان أعظم مشكل يجابهنا فى درس شؤون الجامعة فى العالم الاسلامى هو مشكل الاتفاق على الهدف الذى نريد من الجامعة ان تحققه . فمعظم جامعاتنا قامت كما أشرنا توا على انماط مستوردة . فكل واحدة منها تمثل جهازا ضخما أى فابريقة بشرية . والمهم ان نتسائل ماذا ينتج هذا الجهاز ولاى الاغراض ؟ هناك من يريد من الجامعة ان تخرج اطارات كفأة لجهاز الدولة وللجهاز الاقتصادى وهو هدف مشروع . ولكن استيعاب جهاز الدولة وكذلك الجهاز الاقتصادى يتطلبان عددا محدودا من الافرد وبمرور الزمن قد تصبح الجامعة جهازا لتخريج العاطلين فيما اذا اقتصرت على هذا الهدف . وهناك من يدعو الى ان تعمل الجامعة على رفع المستوى الثقافى للشعب وذلك بتوفير تعليم فى مستوى جامعى لكل من له الاهلية والقابلية يضاف الى ذلك اثراء المعارف الانسانية عن طريق البحث والاكتشاف . وهذا هدف جليل أيضا . وهناك من يرى ان مهمة الجامعة هى المستوى الاقتصادى للفرد وذلك بنيله شهادة علمية راقية تؤهله للحصول على عمل مربح . وهذا هدف مشروع بشرط ان لا تصبح الشهادة غاية فى حد ذاتها وألا تكون وسيلة للتهرب من الاعمال الحياتية التى تتطلب جهدا بدنيا وفكريا . وهناك من يدعو لان تكون الجامعة جهاز اكتشاف وتنمية المواهب والقابليات الخاصة لدى الجيل الجديد . وهذا هدف نبيل ولا شك .

وهناك من يريد من الجامعة أن توجه الطلاب توجيها عقائديا معينا أى أن تصبح الجامعة جهازا سياسيا . وهذا هدف يثير الجدل ولا شك .

هذه وأمثالها نماذج لأهداف جديرة بالدرس والتحليل . ولكن المشكل الاساسى فى نظرنا هو إقرار ما اذا كانت الجامعة هى معهد تعليم وبحوث فحسب أم انها معهد حياة وتربية أيضا .؟ إذ ما قيمة العلم اذا لم يكن ذا تأثير وتأثر بالحياة الاجتماعية ؟ وما قيمة الشهادة الجامعية اذا لم ترافقها أخلاق فاضلة وشعور بالمسؤولية وحب الخدمة ؟

إن هدف الجامعة فى عالمنا الاسلامى ينبغى فى نظرنا ان يكون تحقيق إنسانية الانسان : وذلك يعنى تكوين رجال ونساء نشأوا على الايمان والفضيلة والعلم الصحيح والعمل الصالح . وهذا هدف لم تستوعبه معظم

الجامعات فى عالمنا الاسلامى بعد . واذا تكلمنا عن الايمان فانما نقصد به الايمان بخالق الكون ومسيره وبالاخوة الانسانية التى يدعو الدين الاسلامى الى تحقيقها وبحقنا بالحياة الحرة الكريمة وبقدرتنا على بعث أمجاد أمتنا . وعلى أساس هذا الايمان تقوم الاخلاق الفاضلة بما فيها من أمانة وصدق وعفة ومحبة وغيرية ودقة ونظام وشعور بالمسؤولية وشجاعة أدبية . وعلى أساس الاخلاق الفاضلة يقوم العلم الصحيح والبحث عن الحقائق الناصعة بدون تأثر بالاهواء والعواطف . وعلى أساس العلم الصحيح يقوم العمل الصالح وتجديد البناء الاجتماعى .

فالمطلوب من الجامعة ألا تكتفى بالتعليم النظرى بل ان تكون أفرادا اجتماعيين أصحاء جسدا وعقلا ، يعيشون عيشة عائلية سعيدة ، وينتمون الى دولة لها قوانينها التى تسن عن طريق الشورى ويحملون لها الولاء ، يحبون البحث عن الحقيقة ويطلبون العلم بلا كلل أو ملل . وهم على صلة دائمة بالطبيعة وبالمصنع أو المتجر أو المزرعة وبالمجتمع الانسانى محليا ودوليا . يتمتعون بالجمال وبالفنون الجميلة ، يتحلون بالاخلاق الفاضلة مطمئنى النفوس يمارسون العبادة واصلاح النفس . والسؤال الكبير او المشكلة الرئيسية هى كيف نجعل من الجامعة فى عالمنا الاسلامى « مدينة فاضلة » تخرج لنا إنسانا جديدا ؟ وهل جامعاتنا فى العالم الاسلامى اليوم وبأوضاعها الراهنة تحقق هذا الهدف ؟

مشكل المال والرجال :

ان تحقيق الهدف الذى نريد ليس بالامر الهين . فالجامعة فى عالمنا الاسلامى إنما تقوم على عاتق عدد وافر من الاساتذة العلماء الحكماء المربين. وإن شهرة أية جامعة فى العالم ومنزلتها تتوقف قبل كل شيء على من فيها من أساتذة بارزين . وجامعاتنا تفتقر فى معظم الاحيان الى العدد الكافى من الاساتذة المتازين . وهؤلاء ان وجدوا فهم قد يكونون فى وضع غير مستقر ماديا أو معنويا فى بعض الحالات . ثم ان القليل من الاساتذة العلماء من تمرس فى شؤون التربية الى جانب التعليم . وحتى أساليب تعليمهم فانها قد تكون رتيبة فانهم قد يدرسون بطريقة القائية جافة ومملة فى بعض الحالات . اذن فتكوين الاساتذة المربين المتشبعين بروح الضبط والدقة فى البحث العلمى ما يزال مشكلة أساسية فى جامعات عالمنا الاسلامى . والامر يتطلب ايفاد العدد الكافى

من الشبان والشابات الناضجين الموهوبين ذوى القابليات الممتازة الى أرقى جامعات العالم ليحصلوا على أرقى الدرجات العلمية ثم منحهم الوقت الكافى لاكتساب الخبرة بمزاملة كبار الاساتذة والباحثين العالميين . وبعد عودتهم الى وطنهم يؤمل ان يعاملوا معاملة كريمة من حيث المرتب والمقام الاجتماعى ومن حيث تأمين وسائل البحث والنمو لهم بحيث يسعدون فى خدمة أمتهم وبلادهم ولا يعودون الى ديار الغرب من حيث أتوا . وهذا يقودنا الى التأكيد على حاجة جامعاتنا الى مكتبات عامرة تحتوى على أمهات الكتب العلمية وعلى أحدث ما يجد من بحوث فى شتى الاختصاصات والتأكيد كذلك على الحاجة الى مختبرات (معامل) وحقول تجريبية . وليس من النادر ان نجد بعض أدوات المختبرات أو المكائن فى بعض الجامعات ما تزال محفوظة فى صناديقها ولم تفتح بعد وذلك لعدم توفر من يحسن تركيبها او استعمالها او لعدم اعداد المحل الذى توضع فيه . والحكومات الاسلامية سخية عادة فى البذل على جامعاتها ولكن العديد منها فقيرة لا يتوفر لديها المال الكافى فى الوقت الذى تقوم بعض الدول الغنية بالصرف بسخاء واسراف . فالمشكلة الرئيسية الثانية التى تجابه الجامعات فى العالم الاسلامى هى مشكلة اعداد الاساتذة والوسائل التربوية وفق سياسة تربوية حكيمة .

المشاكل الطلابية :

ان أعوص المشاكل التى تجابه الجامعة فى عالمنا الاسلامى حاضرا ومستقبلا هى المشاكل الطلابية . فهى مشاكل معقدة متعددة الجوانب وها نحن فيما يلى نستعرض نماذج منها :

(١) إن الاخذ بالمبدأ الدمقراطى فى التعليم يتطلب فتح ابواب الجامعة لكل من يريد دخولها . وهذا مبدأ اسلامى صحيح . فطلب العلم فريضة على كل مسلم . ولكن المشكلة تبرز حين يكون الطلب اوسع من الامكانات المادية المتوفرة لدى الجامعة . ولذلك فقد نجد بعض الجامعات تفتح الباب على مصراعيها فتضحى بالمستوى العلمى وبالكيفية . بينما نجد جامعات أخرى تعنى بالانتخاب فتقبل اصحاب المواهب والقابليات الممتازة أولا فتمنحهم الاولوية فى القبول . هذا ونحن نؤيد سلم الاولويات فى القبول فى حالات كهذه .

(٢) أهمية الدعم المادى للطلاب الموهوبين ولابناء القرى والارياف والمعوزين من الطلاب ولا سيما الفتيات وذلك لتحقيق العدل الاجتماعى وجعل الجامعة

ملتقى للمواهب والقابليات الممتازة من كل طبقات الشعب وكل انحاء البلاد . ثم استضافة من يقدم الى البلاد من الطلاب من أقطار أخرى .

(3) هناك مسألة نضج الطلاب قبل دخولهم الجامعة : هل يقبل الطالب الى الجامعة بعد اتمامه الدراسة الثانوية مباشرة أم يطلب اليه دخول معترك الحياة لمدة سنة أو سنتين على الاقل قبل التحاقه بالجامعة ؟

إن « خدمة العمل » التى وجدت فى المانيا قبل الحرب العالمية الثانية كان لها دور محسوس فى تحقيق نضج الشباب اجتماعيا وسياسيا وهى ما تزال موضع تقدير العديدين من فلاسفة التربية المعاصرة . وها هى روسيا السوفياتية اليوم تطلب من الشبان والشابات ممارسة الحياة فى المعمل او فى الحقل قبل دخول الجامعة . وكذلك الصين الشعبية فانها تعنى بالخدمة الفعلية فى « الكوميون » باعتبارها عنصرا هاما فى التربية السياسية والاجتماعية وفى الولايات المتحدة الامريكية كثيرا ما يجمع الطلاب بين العمل الحر والتحصيل الجامعى . نحن نحبذ « خدمة العمل » وندعو الى ان تكون « الخدمة المدنية » ولا سيما الخدمة فى الارياف من ضرورات التربية الجامعية .

(4) مشكلة انتماء الطلاب الى الاختصاص الذى يتفق وميولهم وقابلياتهم من جهة ويتلاءم مع حاجات الدولة والمجتمع من جهة أخرى :

إن هذه المشكلة تجابه العديد من الطلاب فى جامعاتنا فى العالم الاسلامى فطالما زج بطالب فى فرع اختصاصى لا يميل اليه وطالما اختار الطالب نفسه فرعا لا يتلاءم ومواهبه وقابلياته . فمشكلة التوجيه الدراسى تتطلب تعاونا وتفاهما بين الطالب وبين الهيئات الجامعية المختصة بالتوجيه كما تتطلب المرونة فى وضع البرامج الدراسية بحيث يمكن للطالب ان يتحول من اختصاص الى آخر بدون عوائق خلال السنتين الاولى والثانية من الدراسة الجامعية اذا لزم الامر .

(5) ومن المشاكل المستحدثة فى الحياة الجامعية مشاركة الطلاب عن طريق ممثليهم الذين يختارونهم باسلوب دمقراطى حر فى تخطيط وادارة شؤون حياتهم الجامعية بما فيها القضايا الانضباطية . نحن نؤيد هذه المشاركة الطلابية ونعتقد ان مبدأ المشاركة هذا يتفق كل الاتفاق مع تقاليدنا الاسلامية القديمة فى الحياة الجامعية .

(6) مشكلة فرض الدروس على الطالب أو اختياره لها : ان بعض الجامعات تكثر من فرض الدروس المطلوب درسها مع منح نسبة ضئيلة من حرية الاختيار للطالب . بينما هناك جامعات أخرى تعمل العكس فتقلل من عدد الدروس المفروضة وتكثر من عدد الدروس التى يختار منها الطالب ما يلائمه ومع الاستاذ الذى يرغب فى التتلمذ عليه . ونحن نؤيد حرية الاختيار ونعتقد انها تتفق وتقاليدنا الاسلامية القديمة فى الحياة الجامعية .

(7) مسألة الجمع بين الجنسين فى الجامعة من المسائل التى ثار حولها الجدل . فالبعض يرى ضرورة فصل الجنسين عن بعضهما فى التعليم الجامعى وتأسيس جامعات خاصة بكل جنس . نحن لا نعرف أية مشكلة يقيمها الدين الاسلامى الحنيف حول الجمع بين الجنسين ما دام الطلاب ذكورا واناثا قد نشأوا نشأة إسلامية تؤكد قواعد الحشمة والشرف لدى الجنسين بحيث يشعر الطالب الجامعى بأن الطالبة بمثابة أخته أو عضو من اعضاء أسرته . فيعاملها بالحشمة والادب . كما اننا لا نجد ما يمنع التزاوج بين الطلاب الجامعيين فيما اذا حصل الاختيار والتوافق بين الطرفين . وقد يكون ذلك أضمن لحياتهم الدينية والدراسية . أما قضية النسل فيمكن التحكم فيها حسب الظروف وبالطرق العلمية .

(8) ربما كانت أخطر مشكلة طلابية تجابه الجامعة فى العالم الاسلامى اليوم هى المشكلة المتأتية من تغلغل المذاهب والعقائديات المستوردة فى صفوف الطلاب وقيام الصراع العقائدى فيما بينهم داخل المؤسسات العلمية . ثم قيام البعض منهم بالدعوة الى الاضراب عن الدروس بحجة أو أخرى .

نحن نعتقد بأن الجامعة ليست محل عمل سياسى مباشر . انها محل لدرس متفتح للعمل السياسى . فهى تدرس كل التيارات السياسية المعاصرة وكل العقائديات بروح علمى وبدون تعصب أو تحيز لهذه الجهة أو تلك .

للطلاب الجامعيين فى نظرنا الحق فى ان ينظموا حوارا سياسيا أو عقائديا بأسلوب دمقراطى حر داخل جدران الجامعة على ان لا يكون لذلك أى اتصال بالجهات السياسية خارج الجامعة وأن يحترم الرأى المخالف ويفسح له المجال الكافى للدفاع عن وجهة نظره . فالروح الرياضية العالية ينبغى أن تبرز فى أجلى مظاهرها فى حوار كهذا فلا عنف ولا هياج !

أما الاضرابات عن الدروس فان ضررها أكبر من نفعها ولذلك وجب العزوف عنها فى معاهد تعيش على حساب الشعب ومن ضريبة المواطن اذ ان

الذى يعيش على حساب الشعب لا بد له ان يحمل الامانة بنـزاهة وألا يبـذر أموال الشعب . والمظاهرات الطلابية ليس لها ما يبررها الا فى ظروف قومية خطيرة وضد عدو مستعمر . فمشكلة الجامعة اذن هى مساعـدة الطـلاب على تحكيم عقولهم والسيطرة على هوائجهم (اندفاعـاتهم) وتبصيـرهم بحيث لا يقعون فى فخ جهة سياسية معارضة ولا يصبحون كالخراف تسير وراء مهرج غوغـائى .

مشاكل الدراسة والتربية الجامعية :

اذا كنا نريد من الجامعة فى عالمنا الاسلامى ان تخرج (تكون) انسانا مسلما عالما عاملا يجابه متطلبات الحياة المعاصرة بروح ايجابية فقد تجابهنا المشاكل التـالية :

(1) ما هى العلاقة بين العلم والفلسفة والدين فى الاسلام ؟ وهل هى علاقة تكامل أو تناقض ؟ إن ديننا الاسلامى الحنيف يجمع بين العقل والنقل ويوحـد بينهما . فليس فى ديننا كما أفهمه ماينافض العقل وليس فيه مايعارض الفلسفة التكاملية الموحدة . ولكن العديد من الجامعات فى عالمنا الاسلامى اليوم اهملت العناية بالدين وبالتربية الدينية فاصبحت علمانية فعلا . وهذه مشكلة أساسية لا بد للجامعات فى عالمنا الاسلامى من مجابهتها وحلها اذا شئنـا انقـاذ أمتنـا ومجتمعنا الاسلامى من الظلام الروحى والضلال العقائدى .

(2) ما هى العلاقة بين الشمـول والتخصص : إن تفجـر العلـوم وتشعب فروعها وفروع فروعها وتطبيق ذلك على الحياة جعل من المستحيل على الطالب مهما أوتى من موهبة وقابلية من ان يستوعب كل العلوم . فلا بـد له من ان يتخصص فى فرع من علم أو فى فرع فرع من علم فيكرس طـوال حياته فى البحث والتتبع بصبر وجلد ، ولكن تخصصه هذا لا يجوز ان يجعل منه انعزاليا أى منفصلا عن حقول الحياة العلمية الاخـرى . إن بعض الجامعـات فى عالمنـا الاسلامى تجعل الطالب يبدأ بالتخصص من أول سنة جامعية . فهو يتخصص فى علم إنسانى كعلم التاريخ مثلا ولا يدرس الاقتصاد . أو أنه يدرس الفلسفة مثلا وهو لم يدرس التاريخ الطبيعى . او انه يدرس القانون مثلا وهو لم يدرس علم النفس ... الى غير ذلك . ان التخصص فى فرع من الفروع مع ضرورته لا يجوز فى نظرنا ان يكون تخصصا منغلقا بل ينبغى ان تكـون هنـاك نوافـذ مفتوحة فى تكوين الطالب ينفذ منها الى حقول المعرفة خارج اختصاصه .

وما يقال عن دراسة الطالب يصدق على ضرورة التعاون بين الاساتذة ذوى الاختصاصات المنوعة . فهناك قضايا حياتية تتطلب تعاون ذوى اختصاصات منوعة فقضية اجتماعية واحدة قد تتطلب تعاون العالم الدينى مع العالم الاجتماعى مع العالم النفسى مع عالم فى الطب . ومن مشاكل الجامعات فى عالمنا الاسلامى ان العديد منها مبتلاة بمرض الانغلاق والعزلة بين الفروع والاختصاصات . فكلية العلوم الانسانية مثلا لا صلة لها بكلية العلوم الطبيعية أو بكلية العلوم الدينية . بينما المفروض ان تكون هناك منافذ بين الكليات بحيث يستطيع طالب فى كلية ما ان يحضر درسا فى كلية أخرى .

3) ما هى العلاقة بين المادة والطريقة : لما أصبح استيعاب أى علم من العلوم من الصعوبة بمكان نظرا لتشعبه ولنموه المستمر أصبح من الضرورى التأكيد على تدريب الطالب على الرجوع الى المصادر الاصلية وتعريفه بأساليب البحث العلمى من تحقيق وتبويب . أى التأكيد على الطريقة بقدر التأكيد على المادة ان لم نقل أكثر . ولما كان نمو العلوم مستمرا أصبح من المهم ترغيب الطالب الجامعى فى متابعة ما يستجد من ابحاث واكتشافات فى حقل اختصاصه خاصة وفى الحياة عامة .

(4) ما هى العلاقة بين البرامج الجامعية وحاجة المجتمع : ان العديد من الذين يدخلون الجامعة انما يفعلون ذلك لنيل شهادة جامعية تؤهلهم لايجاد عمل بعد التخرج يدر عليهم بدخل يسد احتياجاتهم وهذا أمر مقبول . ولكن البعض من المتخرجين يجدون أنفسهم غير مؤهلين للعمل الا فى الحقل الذى تخصصوا فيه فاذا كان التوق كاسدا فى ذلك الحقل قد يصبحون فى عداد العاطلين . هذه مشكلة يجابهها العديد من الشبان والشابات المتخرجين من الجامعات فى عالمنا الاسلامى . لتلافى ذلك نرى ان تدخل فى برامج الدارسة مرونة بحيث يدرس الطالب فرعا ثانويا الى جانب الفرع الذى يختص فيه فمن يدرس الآداب مثلا يمكنه ان يحضر دروسا فى الصحافة أو فى الترجمة الى لغات أجنبية أو فى الشؤون الادارية والتجارية أو فى التعليم . ثم إنه يستطيع بعد تخرجه ان ينخرط فى دورة دراسية خاصة تمكنه من الدخول فى عمل من الاعمال لا تمت الى الآداب بصلة مباشرة . هذا ومن المفيد لكل طلاب الجامعة مهما كان اختصاصهم ان يتقنوا لغة أجنبية واحدة أو أكثر الى جانب لغتهم القومية وان يتدربوا على تنظيم السجلات والحسابات والطبع على الآلة الراقنة واستعمال الآلة الحاسبة ذلك مع التحلى بصفات الدقة واليقظة وحفظ المواعيد وحسن التعامل مع الغير . وعليه فلا يجوز ان يصبح الاختصاص مهما كان

نوعه مانعا من مزاولة عمل يكسب الرزق فى حقل خارج الاختصاص . ومن المهم فى جامعاتنا فى العالم الاسلامى ان تنشىء الشبان والشابات على حب العمل واحترام العمل مهما كان نوعه بلا ترفع ولا ملل .

(5) الجامعة واتساع أفقها التربوى : إن معظم الجامعات فى العالم الاسلامى يقتصر نشاطها على التعليم النظرى البحت تقريبا فلا عناية تذكر بحياة الطالب العملية او الاجتماعية او الدينية او الفنية . وفى الدروس النظرية ذاتها قد يرهق الطالب بتحميله دروسا عديدة وعويصة احيانا ثم إنه قد يجبر على درس ما لا يفيده فى حياته الحاضرة او المقبلة . كل ذلك يتطلب إعادة نظر جذرية فى حياة طلابنا الجامعية بحيث يعيش الطالب حياة سعيدة فى الجامعة ويحصل فيها على تربية متكاملة وذلك بتعيين أوقات خاصة لساحات الرياضة أو المسبح أو قاعات الرسم والموسيقى وفى دور العبادة (المسجد) وفى قاعة المحاضرات وفى المعامل أو الحقول كل ذلك الى جانب مزاولة المكتبة الغنية بالمراجع .

(6) مراعاة الفروق الفردية : إن البرامج المقررة فى العديد من الجامعات فى عالمنا الاسلامى تتطلب ان يدرس طلاب كل قسم أو اختصاص الدروس ذاتها وأن يسيروا جميعا فى سرعة واحدة مهما اختلفت قابلياتهم أو رغباتهم ومهما تنوعت ظروفهم واحتياجاتهم وهذا ما وصفته « بالقولبة » . من يتخلف عن القافلة فى سيره عليه اعادة السنة الدراسية فى بعض الحالات . فى هذا تجن على الطالب وتبذير للمصروف الجامعى . فالحقيقة هى أن الطلاب يختلفون من حيث قابلياتهم وسرعتهم فى السير فى الدروس كما انهم مختلفون من حيث استطاعتهم التفرغ للدراسة . ولذلك فالافضل ترك اختيار عدد الدروس التى فى وسع الطالب حملها للطالب نفسه . فالبعض يستطيع ان يحمل برنامجا أثقل من غيره ولذلك فهو يستطيع انهاء الدراسة الجامعية الاولى فى ثلاث سنوات بدلا من أربع بينما أكثرية الطلاب تتمها فى أربع سنوات وهناك إقلية قد تكمل البرنامج فى خمس سنوات أو أكثر . الامر يتطلب وضع البرامج الدراسية على أساس « الوحدات » بدل السنوات أو الشهادات . فالمطلوب للتخرج عدد من الوحدات الدراسية معين ولكل طالب أن يحمل من الوحدات الدراسية ما يناسب طاقته وظروفه . وهو لا يتخرج من الجامعة حتى يجتاز بنجاح مجموع الوحدات المطلوب بقطع النظر عن عدد السنوات التى يقضيها فى الجامعة . فلا رسوب ولا اعادة سنة للاكثرية الساحقة من الطلاب .

(7) تعدد المواد الدراسية وتفتيتها : ان بعض الجامعات تحمل الطالب ما لا يقل عن ست مواضيع دراسية مختلفة فى الوقت الواحد ويخصص لكل

موضوع ساعة او ساعتين فى الاسبوع عادة . النتيجة قد تكون مشوشة للطالب والدراسة تكون سطحية فى بعض الاحوال . فالطالب يستفيد فى نظرنا فيما لو درس بمعدل موضوعين أو ثلاثة فى الوقت الواحد على ان يخصص لكل موضوع ما بين الثلاث والخمس ساعات فى الاسبوع بحيث تدرس مادة الموضوع كوحدة مترابطة كاملة فى سنة واحدة لا ان تجزأ وتقسم على عدة سنوات . فعلم النفس العام مثلا يدرس كله فى سنة واحدة لتكون لدى الطالب نظرة شاملة موحدة عن العلم لا أن يجزأ فيعطى فى سنتين أو أكثر .

(8) مشكلة أساليب التدريس : المهم فى الدراسة الجامعية أن يقبل الطلاب على دروسهم باهتمام وسرور وان يستوعبوا المادة الدراسية ويهضموها . فالعبرة ينبغى أن تكون فى هضم المادة والتصرف بها فى الحياة اكثر من حفظها وحشوها فى الحافظة فجة منعزلة عن باقى المواد . والمشكلة الاساسية هى ان البعض من الاساتذة لم يطلعوا على قواعد علم النفس واصول التدريس فهم فى الغالب ينسجون على منوال أساتذتهم الذين درسوا عليهم والنتيجة قد تكون ان الاستاذ يقتصر على اسلوب الالقاء فى تدريسه والقاؤه قد يكون مملا منوما وصوته غير مسموع وكلامه غير واضح . ثم ان الطلاب يعتادون على تسجيل ما يسمعونه فيحفظونه بدون مجال للمناقشة أو المشاركة فى اعداد الدرس وبدون تطبيق كاف . إن أفضل أسلوب للتعليم الجامعى فى نظرنا هو الخروج الى الطبيعة والى الحياة فى المجتمع وتسجيل المشاهدات ثم العودة الى قاعة الدراسة ومناقشة وتحليل ما شوهد ثم التوصل الى المبادىء والقواعد العلمية ثم الرجوع الى المصادر والمراجع الرئيسية التى تعالج الموضوع ودرسها . بذلك تكون الدروس مرتبطة دوما بالحياة وبالوجود . ويكون السير من المدركات الحسية الى المفهومات المجردة . والطريقة السقراطية ليست بعيدة عما ندعو اليه فهى مؤسسة على الواقع الحى والتفكير السليم . ولنستمع الى العالم النفسى والفيلسوف الامريكى وليم جيمس وهو يتحدث على لسان العالم السويسرى آغاسيز :

« اذهب الى الطبيعة وخذ الحقائق منها بيديك انظر وشاهد لنفسك ، هذه هى الدعوة التى دعا اليها آغاسيز والتى كان لها مفعول الكهربة فى الجو التعليمى » .

هذا ما نحتاج اليه فى تعليمنا الجامعى : الخروج الى الطبيعة والى مرافق الحياة وادخال الطبيعة والحياة الى قاعات الدراسة .

(9) علاقات الاساتذة بالطلاب : ان هذه العلاقة تقتصر فى معظم جامعات العالم الاسلامى على رؤية الطلاب أستاذهم فى قاعة المحاضرات مرة أو مرتين

فى الاسبوع . هناك فجوة عميقة بين الاستاذ والطالب فى العديد من الجامعات فى العالم الاسلامى فالاستاذ قد لا يعرف أسماء طلابه فى قاعة المحاضرات المزدحمة . والطالب قد لا يعرف أستاذه الا بقدر ما يسمعه منه من محاضرات او ما يسمعه عنه فى الخارج . بينما المفروض أن يسود الجامعة جو عائلى وأن يكون لكل زمرة من الطلاب أستاذ مرشد يعمل على نصحهم وتوجيههم ويساعدهم على حل مشاكلهم . وهذا يتطلب زيادة عدد الاساتذة وتحميلهم مهام تربوية الى جانب قيامهم بالتدريس النظرى والعملى .

وقد اعجبنى ما شاهدته فى جامعة ستانفورد بكاليفورنيا (الولايات المتحدة الاميريكية) فى السنة الماضية (1977) حيث وجدت الطلاب يعيشون فى وحدات سكنية تحوى الواحدة منها نحو الثمانين طالبا وللوحدة السكنية مرافقها من مطعم (كافيتيريا) وقاعة اجتماع ومطالعة الخ ... والى جانب كل وحدة سكنية عدد من البيوت مخصصة للاساتذة يسكنونها مع عائلاتهم وهم على اتصال دائم بطلاب الوحدة السكنية يتناولون الطعام معهم على مائدة واحدة ويبحثون معهم الشؤون العامة والخاصة فى جو عائلى راق . إن هذا النظام ليس بعيدا عن النظام المتبع فى المدارس الدينية فى النجف (العراق) حيث يعيش الطلاب فى مدارس قد تحوى الواحدة منها نحو الخمسين طالبا ولكل طالب غرفته الخاصة وهو متكفل بتدبير شؤون معيشته من طبخ وغسيل ولبعض الاساتذة غرف الى جانب غرف الطلاب ولا تختلف عنها فى شىء . الكل يعيشون معا عيشة استقلالية .

(15) مشكلة التربية الدينية : من الامور المخجلة والمزرية ان نجد العديد من الجامعات فى العالم الاسلامى تخرج طلابا لا يعرفون عن دينهم الاسلامى الشىء الكافى . فهم لم يدرسوا القرآن درسا معمقا فلم يتعرفوا على ما فيه من كنوز الحكمة والمعرفة والهداية كما أنهم لم يتمرسوا على تأدية الفرائض . ولذلك نرى لزاما على الجامعات فى العالم الاسلامى ان تدخل تدريس القرآن فى المستوى الجامعى كمادة مطلوبة من الجميع وفى كل الاختصاصات . كما نؤمل أن يشجع الاساتذة والطلاب على تأدية الفرائض بصورة منتظمة ويفضل أن تكون جماعية .

مشكلة اللغة والتعريب :

من المشاكل التى تعانى منها جامعاتنا فى العالم الاسلامى مشكلة اللغة ، ففى العالم الاسلامى جامعات لا يتقن طلابها لغة أجنبية . كما أن فيه جامعات

يتقن طلابها اللغة الاجنبية ويجهلون لغتهم القومية . وكلا الحالتين يتطلبان العلاج السريع . ان اتقان لغة أجنبية حية واحدة على الاقل ضرورى لكل من يدخل المعاهد العليا . كما ان اتقان اللغة القومية ضرورة لا يجوز بحال من الاحوال التساهل فيها .

أما قضية التعريب فى التعليم الجامعى فهى فى نظرنا قضية مفروغ منها . فاللغة العربية هى من أطوع اللغات وأكثرها صلاحا لمسايرة الحياة العلمية . وان وجد تقصير فى استعمالها فانه يرجع الى تخلف ابنائها والى المسؤولين الذين لم يكلفوا أنفسهم عناء التخطيط لنقل أمهات الكتب العلمية من شتى انحاء العالم الى اللغة العربية ثم تشجيع الباحثين على نشر ابحاثهم العلمية بلغتهم القومية . المسألة هى مسألة سياسة قومية عليا فى التعليم . فمتى عزمنا على تحقيق استقلالنا الثقافى حقا فأمر التعريب يصبح سهل المنال . فما على الجامعات فى العالم الاسلامى الا ان تسير بخطى حثيثة فى استعمال لغتنا القومية فى التعليم الجامعى . ولا يعنى ذلك قط الانغلاق على منابع الثقافة العالمية فالعكس هو المطلوب . فالاساتذة ينبغى ان يعودوا طلابهم على استعمال مراجع أجنبية فى مختلف اللغات التى يحسنونها . كما ان المفروض ان تقوم الجامعات فى العالم الاسلامى بدعوة أساتذة زائرين يحاضرون بلغاتهم الاجنبية ان قضية التعريب هى قضية انماء ثقافتنا القومية وليست قضية انغلاق أو تعصب ضد الثقافات العالمية الحية .

مشكلة الامتحانات والشهادات الجامعية :

ان العديد من الطلاب الذين يؤمون الجامعات إنما يفعلون ذلك بدافع الحصول على شهادة جامعية قبل كل شىء . فالشهادة فى نظرهم هى الغاية القصوى من التعليم الجامعى . ولما كان الامتحان هو الوسيلة للحصول على الشهادة فيصبح النجاح فى الامتحان هو الهدف . ولكن العديد من الطلاب المساكين قد يهملون اعداد دروسهم خلال السنة الدراسية فيبدأون بالاعداد للامتحان فى الشهر الاخير من السنة الدراسية . واذذاك يرهقون اعصابهم بالدرس والسهر ويحشون الحافظة بالمعلومات والارقام . ثم يأتون الى امتحان كتابى يدوم أربع ساعات للاجابة على سؤال واحد يتلقون بعده الحكم على مصيرهم اما بالنجاح او بالرسوب حسب نوع الجواب الذى دبجوه ووفق مزاج المصححين وهل هم متساهلون أو متعصبون . فالطالب يكون كمن ينتظر الحكم عليه اما بالبراءة او بالاعدام من شاهد واحد ومن جلسة واحدة

للمحكمة وبدون تحقيق كاف . إنها مأساة تربوية حقا ! وبهذه المناسبة نشير الى حوادث الانتحار العديدة فى اليابان بسبب الرسوب فى الامتحان فقد قدر عدد المنتحرين فى السنة الماضية (1977) بـ 600 طالب . كما نشير الى بعض حوادث اعتداء قام بها الطلاب الراسبون على أساتذتهم . ان الجامعات فى العالم الاسلامى فى غنى عن هذه المآسى لو عادت الى تقاليدنا الاسلامية فى التربية وغرست فى نفوس الطلاب حب العلم وحب البحث والاكتشاف لأجل العلم ولأجل البحث ولأجل الاكتشاف وليس لأجل الامتحان . ومن المهم تعويد الطلاب على الدراسة المنتظمة خلال السنة الدراسية واجراء الاختبارات الشهرية التى يحسب حسابها فى الدرجة النهائية للطالب بحيث يصبح امتحان آخر السنة تتويجا طبيعيا لمجهودات الطالب المستمرة فهو يحضر الامتحان فى آخر السنة هادئا مطمئن البال بلا خوف او قلق .

أما الشهادة الجامعية فهى وسيلة وليست غاية . اذ ما قيمة الشهادة اذا كان حاملها لم يحصل على الكفاءة العلمية والمهنية المطلوبة ؟ لذلك وجب التأكيد على النمو التربوى وعلى النضج فى التفكير وفى السلوك قبل الاهتمام بالشهادة . هذا ومن المفيد جدا تشجيع الدراسة الحرة فى الجامعة . وهى الدراسة التى لا تتطلب الشهادة وذلك لمن يريد الاستزادة من علم من العلوم ولمن يريد توسيع آفقه الثقافى فى الحياة وفى المهنة .

إن الامتحان والشهادة الجامعية قد يكونان من ضرورات حياتنا المعاصرة ولكنهما لا يجوز ان يحلا محل التربية الحقيقية والنمو المتكامل للانسان .

مشكلة الانقلابات السياسية :

من مشاكل الجامعات فى عالمنا الاسلامى المعاصر مشكلة جديدة هى مشكلة الانقلابات العسكرية والسياسية التى تمنى بها بعض البلاد الاسلامية بين فترة وأخرى . فكل نظام جديد يستولى على الحكم قد يقصى بعض أساتذة الجامعات من مراكزهم العلمية فيزج بهم فى السياسة أو فى السجن فى بعض الحالات . وقد يفرض على الجامعة أساتذة وعمداء جدد يؤيدون النظام الجديد . وكنتيجة لذلك قد ينزح بعض الاساتذة عن بلادهم فيهاجرون شرقا أو غربا . كما ان بعض الانظمة السياسية قد تفرض عقائديات أو شعارات معينة على المعاهد العلمية الامر الذى يتنافى مع أبسط مبادىء الحرية والاستقلال الضروريين للتعليم الجامعى . اذن فاستقلال الجامعة وحرية البحث العلمى فيها قد يصبحان المشكلة الاولى والاخيرة لتعليمنا الجامعى فى العالم الاسلامى اليوم .

ختاما :

هذه ملاحظات عجلى على بعض المشاكل التى يجابهها التعليم الجامعى فى العالم الاسلامى . ولما كنا على أبواب نهضة جديدة وتخطيط جديد لمستقبل أمتنا فالمأمول ان نتغلب على كل ما يجابهنا من مشاكل وصعاب بعزيمة راسخة وفكر ثاقب مستفيدين من العناصر الحية التى يحويها تراثنا التربوى من جهة ومن أفضل تجارب الامم شرقيها وغربيها من الجهة الاخرى . المهم أن نطمح دوما الى السمو وأن لا نقنع بالمستويات الوسطى والضعيفة . فان أمة تريد تحقيق أهداف الوحدة والحرية والرقى لابنائها لا بد لها ان تفكر مليا فى شؤون جامعتها فتؤسسها على قواعد الايمان والاخلاق والعلم والعمل . وليكن شعار جامعاتنا فى العالم الاسلامى أبيات الحكيم الاسلامى أبى على ابن سينا :

هذب النفس بالعلوم لترقى   فترى الكل فهو للكل بيت
إنما النفس كالزجاجة والعقل   سراج وحكمة الله زيت
فاذا اشرقت فانك حى   واذا أظلمت فانك ميت

د. **محمد فاضل الجمالى**
الجامعة التونسية

بعض المراجع :

(1) د. محمد فاضل الجمالى : **نحو توحيد الفكر التربوى فى العالم الاسلامى**
(دور الجامعة فى المجتمع الحديث ص 257 — 275)
الدار التونسية للنشر 1978 .
(2) د. محمد فاضل الجمالى : **نحو تربية مؤمنة**
الشركة التونسية للتوزيع 1977
(3) عبد الفتاح أبو غدة : **صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل**
مكتب المطبوعات الاسلامية ، بيروت 1971
(4) M. Duffour, D. Monteux, Y. Schwartz: L'université de la Crise au Changement 1978, Editions Sociale, Paris
(5) Ronald Dore: The Diploma Disease. George Allen Unwoin Ltd London 1976
(6) Carnegie Commission on Higher Education : *Priorities For Action.* Final Report. Megraw-Hill Book Company 1973

من أوراقي القديمة

أو كالبداية تكون النهاية

شعر: الشاذلي عطاء الله

عجبت لمن يعيش لغير غايه ويخشى ان يفاجأ بالنهايه
يخاف فوات آمال جسام ولكن ما له فيها هوايه
ويقضى العمر يجتر الامانى ويحلم انه بطل الروايه
عجبت له يعيش على هوان ويرضى بالمذلة والزرايه
ويأمل أن يحقق ما يرجي ـ بغير تهيؤ وبلا عنايه
يطير خياله فى كل جو ـ بلا هدف له وبلا هدايه
يبيت يغازل الاحلام كيما يعانق ظلها وبه الكفايه
فوا أسفى عليه ! وقد أتيحت له فرص أضيعت فى البدايه
فظن الحظ طوع يديه يسعى إليه بما عليه من وصايه
يقلب فى السما بصرا حسيرا يعود له ولم يظفر بغايه
ويرمى سهمه من غير ريش فيخطىء وهو قد جهل الرمايه
وهل يرجو الضعيف سوى حياة كما تحيا الهباءة والنفايه
بلا هدف يوجهها لقصد ولا سعى يسير به لغايه
ومن بدأ الحياة على أساس من الفوضى فكالبدء النهايه
فانت وما تريد ! فلا مكان لمن يحيا كما تحيا « العضايه »

الشاذلي عطاء الله

الحركة الأولمبيّة والتربية

بقلم : محمد مزالى

لئن اشتهرت الحركة الاولمبية (*) قبل كل شيء بتظاهراتها الرياضية اى بالالعاب الاولمبية ، فذلك لان مجدد هذه الالعاب ، بياردى كوبرتان Pierre de Coubertin كان يعتبرها « عيدا عالميا للشباب » . والواقع ان الحركة الاولمبية لا تقف عند هذه المباراة الدورية الكبرى فقط بل انها فلسفة هدفها تنمية الانسان بصورة متناسقة وغايتها السعى الى اكتماله .

ان الالعاب الاولمبية نفسها لم تكن فى نظر دى كوبرتان غاية فى ذاتها بل هى وسيلة لنشر المثل الاعلى الرياضى واشاعة القيم الاولمبية التى تنبنى على رؤية جديدة فى تربية الشباب .

ولذلك فانه من الخطأ اعتبار الالعاب الاولمبية مجرد مباراة كبيرة ضمن مباريات كثيرة اخرى . وقد حرص بياردى كوبرتان فى خطاب الافتتاح الذى ألقاه سنة 1925 فى المؤتمر الاولمبى ببراغ ، على تدقيق هذا المعنى قائلا ان « عملية التطهير هذه ستكون الحركة الاولمبية المجددة محركا لها ومنشطها بشرط الكف عن اعتبار الالعاب الاولمبية مماثلة لبطولات العالم » .

واذا كانت الرياضة باعتبارها نشاطا بدنيا ، سواء كان لعبا يوفر الاستراحة والتسلية ام مباراة تهدف الى تنمية الذات او الانتصار على الاخر ، ظاهرة بشرية طبيعية ، مرتبطة ، « بالانسان اللاعب » Homo Ludens أى انها قديمة قدم الانسان نفسه ، فان تبين القيم الاجتماعية والثقافية والتربوية

(*) نص المحاضرة التى القاها بالفرنسية الاستاذ محمد مزالى بمدينة أولمبيا (اليونان) (جويلية 1978) .

الملازمة لها لم يتم ادراكه بصورة واعية عبر القرون ، فضلا عن كونه لم يتطور ولم يتضح ٠

لقد أدرك اليونانيون منذ حوالى 25 قرنا الفائدة التى يمكن ان يجنيها المربون من النشاطات الرياضية المكونة للشباب . لقد كان هدف التربية فى أثينا وسبارتا بالخصوص ، تكوين الانسان «الجميل الفاضل» Kalos-Kagathos الانموذج البشرى المتكامل البنية المتناسب الاقسمات ، الرشيق القوام ، فلقد كل جماع الحكمة اليونانية التوازن والاعتدال قبل كل شىء ، اذ لم يكن بالامكان تصور نفس كبيرة ولا همة عالية بدون جسم جميل على أحسن تقويم. ولقد خصص هوميروس Homère أكثر من اربعمائة بيت لوصف سباق العربات الذى نظمه « أشيل » Achille ويذكر « نستور » ابنه « أنتيلوك » بأهمية الذكاء والفطنة فى المباراة الرياضية كما هو الشأن فى الحياة ٠

ولئن تواصلت الالعاب الاولمبية القديمة طوال 1170 سنة تقريبا (من 776 ق.م. الى 393 م.) فانه من قبيل السذاجة الاعتقاد بانها احتفظت دائما بنقائها الاخلاقى والجمالى فضلا عن كونها كانت فى كل العصور عامل تكوين وتهذيب . وبانحطاط أثينا وروما شابت الصدق شائبة الحيلة ، واعترى الروح الرياضية الغش والزور ٠ فساد الاحتفال بالفائزين افراط فى الحماس والحمية وتردى القوم فى لهيب العواطف ونزلوا الى دركات الشطط ومن ذلك ، ان بعض هؤلاء حطموا جزءا من جدار فى سور مدينتهم حتى يمكن لاحد أبطالهم المظفر دخولها من ممر لم تطأه قدم من قبل » وآلت ارادة الانتصار بأى ثمن كان ، الى توخى الوسائل المنافية للتربية شيئا فشيئا وجعلت من الرياضيين مجرد أدوات بعد ان كانوا غاية كل نشاط رياضى . ولقد أوضح « قالبان » Galien ما عبر عنه ابوقراط Hippocrate باحتشام عندما حذر من الافراط فى الاكلات الدسمة والادمان على التمارين المكثفة المخلة بتوازن الابدان وقد اصبحت المباريات فى روما خاصة ، مشاهد للفرجة يعلو فيها الصراخ ويكثر الرهان وتسود القسوة البالغة الألعاب وتتفشى الهمجية فاذا الرياضيون ينحدرون من حيث لا يشعرون الى مرتبة المصارعين ٠

واذا استثنينا بعض الاخلاقيين والكتاب الذين ناضلوا عبر العصور ، فرادى ، من اجل نشاط رياضى نظيف ، يجدد طاقات الشباب ويقوى ملكاتهم البدنية والروحية ، ولم ننس ما كانت توليه الحضارة العربية الاسلامية فى عهود ازدهارها من عناية بالرياضة وتعهد للجسم ، وحرص على لياقته وقوته ،

فقد وجب انتظار القرن التاسع عشر لملاحظة ما قام به رواد الرياضة من عمل ناجع ومستمر يعتبر الرياضة وسيلة لتربية النشء .

ومن بين هؤلاء الرواد « فريدريش لودفيغ ياهن » (1778 ـ 1852) Friedrich Ludwig Jahn وهو احد مؤسسي *الامة الالمانية* ، وتومان ارنولد Thomas Arnold (1795 ـ 1842) الذي يعتبر اول باعث للرياضة في انكلترا وخير من أدرك أهمية الرياضة في تنمية الجسم والروح معا وقد طور بأفكاره التربية الانقلوسكسونية وأثر فيها من الداخل وهو من اهالها .

الا ان شرف اعطاء الرياضة فلسفة انسية شاملة ،واخلاقية تربوية جديدة، وبعدا اجتماعيا ثقافيا شاسعا يعود بلا منازع الى بياردي كوبرتان (1863 ـ 1937) .

ان اسم بياردي كوبرتان يذكر اليوم بمناسبة الالعاب الاولمبية أو فيما يتعلق بالجدل القائم حول الهواية في الرياضة . ولكن الناس ينسون النداء التاريخي الذي صدع به في 17 نوفمبر 1892 بجامعة السربون عندما القى محاضرته الشهيرة عن « تنمية النشاط البدني في العصور القديمة وفي القرون الوسطى وفي العهد الحديث » حيث دعا الى اعادة اقامة الالعاب الاولمبية العتيقة وكان ذلك نتيجة بحث طويل عميق حول التربية واتصالها بالحركة الاولمبية ، ونتيجة مسعى بيداغوجي حول تكوين شباب سليم الجسم والعقل بادماج التربية البدنية والرياضية في مناهج التعليم ».

وما ان بلغ دي كوبرتان العشرين ، (سنة 1883) حتى انكب ، كما يقول هو نفسه (1) ، « بشيء من الحذر ومن الافكار المسبقة ... على دراسة التربية الانكليزية » وقد نشر في غرة نوفمبر من سنة 1886 مقاله الاول بمجلة « الاصلاح الاجتماعي » . ثم اصدر من سنة 1888 الى 1890 ثلاثة كتب : «التربية في انكلترا : معاهد وجامعات » (132 ص) و « التربية الانكليزية بفرنسا » (207 ص) و «جامعات ما وراء الاطلسي» (133 ص) .

ولم يكن بياردي كوبرتان يقوم بأبحاثه لمجرد البحث وولوعا به ، بل انه كان يرمي الى هدف مرسوم وهو القائل : « يجب ان تأخذ الرياضة مكانها في النظام التربوي الفرنسي ، وذلك اهم ما انتهى اليه تفكيري ولو كان غريبا (التربية بانكلترا ـ ماشيت ـ 1888 ـ 327 ص)»

(1) حملة 21 سنة (مكتبة التربية البدنية ـ باريس 1909 ـ 220 ص) .

ولم يلبث ان تجاوز اهتمامه حدود وطنه فوسعت نظرته العالم بأكمله واعتبر الرياضة في مفهومها الصحيح وسيلة لتكوين الانسان الجديد الحر ، سليم الجسم والعقل المتضامن مع مجتمعه والمكتمل في انسانيته ·

ولقد أكد في الصفحات الاخيرة من كتاب « حملة 21 سنة » ما يلي : « اني باق على اقتناعي سنة 1908 كما كنت سنة 1887 بان البيداغوجيا الرياضية كما كان يدركها « ثوماس ارنولد » هي احسن وأنشط ما يرتكز عليه المربون في كافة الاقطار من اجل تكوين مراهقين اقوياء اخلاقيا وبدنيا » كما انه كتب في 26 اكتوبر 1918 بجريدة « لاقازيت دي لوزان » : « ان الحركة الاولمبية تنادي باقامة تربية رياضية شاملة في متناول الجميع ، تزينها فحولة الجرأة والاقدام وروح الفروسية وتندمج في التظاهرات الجمالية والادبية وتقوم مقام الدفع للحياة القومية ، وتكون بمثابة القطب في الحياة المدنية . ان هذا الا البرنامج المثالي » . وفي سنة 1919 ظهرت بلوزان الطبعة الاولى لكتابه « بيداغوجيا رياضية » (3 أجزاء) · واخيرا وعندما قرر ان ينسحب من رئاسة اللجنة الاولمبية الدولية ، صرح في الخطاب الذي القاه في 29 ماي 1925 بقصر بلدية براغ قائلا : أود بالخصوص ان أكرس ما تبقى لي من العمر للتعجيل قدر الامكان بانجاز مشروع أكيد هو ظهور بيداغوجيا خلاقة للوضوح الفكري والنقد الهادىء · (مؤتمر براغ الدولي الاولمبي البيداغوجي الاول ـ التقرير الرسمي ـ براغ 1925 / 255 ص) ·

وهكذا ترابطت التربية والحركة الاولمبية متين الترابط في الكفاح الذي قام به بياردي كوبرتان طوال حياته لتمكين الانسان من تحقيق ذاته كليا ·

وقد شهر بوصفه بيدغوجيا بارعا بعيوب النظام التربوي الفرنسي في مطلع القرن تشهيرا لا يزال ينطبق في اعتقادي على عدد كبير من اقطار القارات الخمس ، اذ ان هذا النظام لا يعدو ان يكون نظاما عقلانيا نظريا صرفا يمثله احسن تمثيل حامل الباكالوريا كما وصفه دي كوبرتان في ذلك العهد وهو « الشاب الطرير الشارب المتطلع بحكم ميوله الى مهنة ما ، القادر على ان يترجم مباشرة من كتاب مفتوح ، وبدون اخطاء لغوية كثيرة ، نصف صفحة من شيشرون أو ان يرسم بصورة مرضية مربع الوتر المثلث ، والقادر كذلك على ان يعدد ـ حسب الطلب ـ خليلات لويس الرابع عشر أو مركبات الكبريت » . (بيار دي كوبرتان ـ ملاحظات حول التربية العمومية ـ 1901) .

ويلاحظ بياردى كوبرتان ان التربية البدنية كانت مهملة تماما او تكـاد . وهكذا نراه فى مؤلفاته البيداغوجية يلح ، لا فقط على هذه التـربية بوصفهـا عنصرا أساسيا للتكوين الكلى ، بل انه يبرز ضرورة اعطاء المباريات الرياضية مكانة ممتازة .

ان الرياضة فى جوهرها وسيلة تربوية ضرورية للتكوين الفكرى والاخلاقى والروحى والاجتماعى للانسان . فالرياضة فى نظر دى كوبرتان « تهىء الجسم وتزكى السجية لخوض معارك الحياة » (ب . دى كوبرتان ، بيداغـوجـيـا رياضية) فلا ريب اذن ان تطبق المبادىء الاولمبية فى كل نظام تربوى مركز على القيم الاخلاقية والروحية والفكرية والجمالية .

ان الرياضة تهدف الى تحرير كل طاقات الجسم البشـرى والى تنسيقهـا وتدريبها على الانضباط بغية تحسين صحة الفتى وجعله أشد قوة واوفر مهارة وأكثر شجاعة وهى بالتالى ترمى الى تنمية سيطرته على العالم المادى واعطائه مزيد القدرة على التأثير فيه .

ولا يتعلق الامر فقط بالترابط الموجود بين تنمية الذكاء وتكوين الضميـر ونمو البدن ، بل ان تنمية الجسم ينبغى الا تطلب الا من اجل غايات عليا ، نعنى قبل كل شىء تحرير الفكر من الشواغل والهموم المتولدة عن تداعى الصحة واعتلال الجسم حتى يتمكن الذهن من الاقبال فى اطمئنان على ما ينبغى له من عمل ، ثم تمكين الانسان من القدرة والشجاعة والفتوة الضرورية لكل عمـل أخلاقى .

ومن جهة أخرى فان على التربية الفكرية الا تطغى على التربية البدنية فقط ، بل بالعكس عليها ان تساعد على تركيزها . ان الكلل الذهنى الناتج عن الانتباه المتواصل والتوتر العصبى تنجر عنهما فى الواقع الاخطار التى تتهدد الاشخاص غير النشيطين الذين لا يوفرون لابدانهم اسبـاب الحركـة . ذلك أنـه ليس بامكان الذين يستنفدون قواهم ويبلغون حدود الاجهاد ان يقاوموا التعب الا بالسهو والارتخاء وتشتت الخاطر .

ولقد تبدو التربية الاخلاقية مضرة للتربية البدنية مرة ونافعة مرة اخرى وفق ما نلقنه للاطفال من احتقار او احترام للبدن . ان لاجسامنا علينا حقا فى نظافتها وحفظها صحيا ، كما ان لها علينا حق التقوية بالرياضة وبذلك يعتدل المزاج وينشرح الصدر وتكون السعادة .

ان للجسم حقوقا وواجبات ، وليس له ان يمارس تلك الحقوق ولا ان يضطلع بهذه الواجبات من دون ان يهيأ وان يمرن وان يراض وان يربى . وانما تتم هذه التربية في اطار النظام التربوي العام، وتكون غايتها اثراء الذات المعنوية مستفيدة هي نفسها من ومضات الذكاء ووثبة الحماس التي بها تكون لعمل الانسان قيمة ومعنى • يقول بياردي كوبرتان فيما كتبه عن الاحترام المتبادل : «ان التنمية العضلية والتدريب البدني عند المراهقين اليوم من شأنهما ان يحفظا اخلاقهم كأشد ما تكون المحافظة وان يبرزا شخصياتهم كأخصب ما يكون الابراز »•

ان الحركة الاولمبية لا تخضع الى الموضة اذ هي حركة دائمة لا تتأثر بالظروف والاعراض ، يقترن فيها العمل بالفكر وبها يكون الفرد انسانا متفتحا متوازنا ، فهي تربية للجسم والعقل والروح معا •

ومعنى ذلك أنها تهدف الى تكوين شباب سليم البدن ، متفتح الذهن متفاعل مع الحياة . انها تعلم الشبان كيف يضطلعون بمسؤولياتهم ، ويفقهون الماضي ويندمجون في عالم اليوم لتهيئة غد افضل • « ان وقت الظهيرة لم يحن بعد أيها السادة وان ايام التاريخ طويلة ، فلنتحل بالصبر ولنبق واثقين من أنفسنا »• (بياردي كوبرتان ، جامعة لوزان 23 جوان 1934) •

واليوم وبعد مرور أكثر من 40 سنة على وفاة بياردي كوبرتان، وبعد الحربين العالميتين اللتين عقبتا الاحتفال بالالعاب الاولمبية الاولى في العصر الحديث واللتين زعزعتا أسس الحياة الاجتماعية وغيرتا منزلة الانسان المعاصر في هذا الربع الاخير من القرن العشرين الذي انتصر فيه العلم والتقنية والتكنولوجيا وتعمقت فيه اكثر من اي وقت مضى التحولات السياسية والثقافية والجمالية والحضارية ، بعد كل هذا من حقنا ن نتساءل عما اذا كانت الثقافة الفكرية التصورية اللا رياضية بل حتى المناهضة للرياضة والتي كان يتذمر منها بياردي كوبرتان قد عرفت تغييرا حقيقيا •

ان قلة الاعتبار التي تقابل بها النشاطات البدنية شأن النشاطات اليدوية قد خفت وتضاءلت بالتأكيد • ان احدا لم يعد اليوم ينازع نظريا في دور الرياضة التربوي بالمدرسة . ولكن ـ كما يلاحظ ذلك « روني ماهو René Maheu هيهات ان تكون كل الامكانات التي تقدمها الرياضة في هذا المجال قد استغلت بما فيه الكفاية أو عرفت ابعادها حق المعرفة (بيان حول الرياضة ص 4• C.I.E.P.S. ثم ان المدير العام السابق لمنظمة اليونسكو الذي توفرت

له بالتاكيد فرصة دراسة مجموعة كبيرة من الانظمة التربوية يضيف فيطرح هذا السؤال الذى يجمع بين الصراحة والوجاهة : « كم عدد الاقطار التى تقوم فيها المعرفة العلمية والادراك العاطفى لقيمة الحياة البدنية فى تنمية الطفل والمراهق ، بدور الملهم للتربية فى مجموعها فتهديها وتطبعها بطابعها ٠ انها أقلية »٠ (رياضة ـ شغل ـ ثقافة ـ الندوة الدولية المنعقدة من 10 الى 15 اوت 1559 ـ التقرير الرسمى ، هلسنكى 1960 ـ 255 ص)

ان التربية هى فعلا ضحية داء يعتبره بعضهم بمثابة الخطيئة الاصلية . الا وهو كما صرح به « ادقارفور » Edgar Faure القطيعة بين المقومات الفكرية والبدنية والجمالية والاخلاقية والاجتماعية وهى « ظاهرة » تكشف عما تعانيه الذات البشرية من تدهور واستلاب وما يسلط عليها من تشويه (تعلم ان تكون ـ اليونسكو ـ نشر فايار ص 80) ٠

لقد ظل الجسم طوال قرون عديدة محل شبهة ومدعاة للاحتقار واعتبر عدو الروح الالد ورجسا من عمل الشيطان ، وهذا « بوسوى » Bossuet يعبر فى نهاية الفصل الخامس من كتاب الشهوة عن اعجابه بالقديس برنار اذ كان يخشى على اتباعه من رجال الدين صحتهم الجيدة ، ومع هذا كما لاحظ ذلك الدكتور « دلاى » Delay فان الجانب النفسى والجانب العضوى يبدوان لنا وكأنهما تحرك لطاقة واحدة . ورغم تطور الافكار فى هذا الميدان منذ ما يناهز القرن ، ورغم التقدم العظيم الذى أنجز فى هذا الميدان ، فان الرياضة فى أغلب الاقطار لا تدرك وظيفتها التربوية الادراك الواضح ولا تحتل المكانة التى يجب ان تعود اليها فى المناهج المدرسية والجامعية .

ان الاوقات المخصصة للرياضة غير كافية وتبقى حبرا على ورق فى الكثير من الاحيان لعدم توفر أساتذة الرياضة او التجهيزات الملائمة او العنصرين معا ٠

ولو كان المسؤولون عن الانظمة التربوية ورجال السياسة عموما مقتنعين حقا بأهمية نشاطات الاطفال البدنية وتأثيرها النافع لا بالنظر الى شعورهم بالنعمة البدنية فقط بل ايضا بالنظر الى قدراتهم الفكرية وتوازنهم النفسانى، لخصصوا الاعتمادات الضرورية لتحقيق حد أدنى من التجهيزات الرياضية بكل المدارس والمعاهد ومؤسسات التعليم العالى ولاعدوا سياسة تكوين لاساتذة الرياضة والمدربين ولاسندوا الى الرياضة الضارب والتوقيت الكفيلين باقناع جمهور التلامذة والطلبة بانهم يتلقون مادة هامة ضرورية لنجاحهم المدرسى ،

أى لنجاحهم فى الحياة . هذا هو وجه من الوجوه الاساسية لسياسة رياضية تربوية حقيقية وهذا ميدان من جملة الميادين التى يجب ان تقوم فيه اليونسكو بدور اكثر جدوى .

ولو كان كل الاولياء من جهتهم مؤيدين للرياضة مقتنعين بأن النمو البدنى وتنمية ملكات اطفالهم النفسية والذهنية مرتبطان الى حد بعيد بالرياضة ، لما قبلوا ما تعانيه الرياضة فى المدارس من اهمال مثلما لا يقبلون انعدام مخابر الفيزياء والكيمياء او تغيب استاذ الرياضيات ولو لفترة محدودة .

واذا لم تكن الرياضة فى المدرسة فى نظر اغلب الاولياء والمسؤولين ورجال السياسة مجرد ترف ، فهى على الاقل نشاط ثانوى ولعب اطفال وتزجية للايام تلهى عند الاقتضاء ولكن بالامكان التخلى عنها دون ان يحصل أى ضرر .

وهكذا فانه رغم ما قام به بياردى كوبرتان من عمل فى هذا المجال ورغم التأثير الذى لقيته أفكاره فى المجتمع المعاصر ، ورغم العمل الدائب الجدير بالاعجاب الذى قام به بعض الرواد المشتتين فى مختلف الامصار والاصقاع ، وهم المربون بحق والمنشطون الذين لا يتطرق اليهم الكلل ، وهداة الشباب المخلصون المتحمسون الرازحون تحت عبء مهمة شاقة تثقلها الاحكام المسبقة والكسل الذهنى وتحجر البيروقراطيين «والخبراقراطيين» Les expertocrates وشذوذ الايديولوجيات وعقم الدغماتيات القديمة والحديثة المشوهة والمستلبة للانسان ... ورغم كل هذا اذن يمكن التأكيد بان العمل الذى ينتظرنا ما زال فى البداية ، وهكذا فان القيم الاولمبية ضرورية للتجديد التربوى الذى يحتاج اليه العالم اليوم اكثر من الامس ورسالة دى كوبرتان ملتصقة بواقعنا اكثر من اى وقت مضى .

وفعلا فانه بالرغم من الرفاه المادى والتسامحية الاخلاقية والاجتماعية التى توهم بالحرية ، فان الشباب فى جزء كبير من المعمورة حزين مكتئب ينوء تحت عبودية اللحظة وحكم الغريزة ويتحمل صدمات وانحصارات متتابعة كالذبابة التائهة على بلور نافذة ، وتتلاقفه فى كل الاتجاهات رياح الموضة فاصبح ضحية مجتمع المتعة والتجارة والتقنوقراطية وتعلق بـ « هات » على حساب « الذات » .

بيد أن هذه الازمة تكشف النقاب عن الوضع الراهن وتبعث على الاطمئنان فى الآن نفسه فاذا لم يترد الشباب الغارق فى النعمة والمدلل من قبل الكهول ، فى الاتباعية العقيم ولم يسلك سلوك القطيع واذا لم يتهالك فى هوة أحلامه ،

وتمرد واتخذ حسب طريقته وسائل للتعبير برزت فى صور من السلوك من شانها ان «تصدم» الكبار ، فذلك كله بفضل القبس الالاهي المشتعل بين جوانبه والمنير لسبيله وبفضل البعد الروحاني الذى هو جوهر الانسان لم يزل حيا في ذاته ، بفضل كل ما يخفق به فؤاده من نبضات الحياة ، ومن هنا جاء بحثه الممض عن محط روحي لرحاله وعن مرجع ايديولوجي ، وهو بحث عن رسالة سامية فيها شفاء لنفسه المعذبة وفيها مدعاة للاقبال على الحياة واستشفاف الامل وفيها فسحة لاكتمال ذاته والاضطلاع بانسانيته ٠

اعتقد ان تصالح هذا الشباب مع نفسه وهذا الفضل من الروحانية الذى ينشده الناس لا يمكن ان يتحققا بمجرد تعميم رغد العيش وتحوير الهياكل والتمسك الطاغي بالتقنية ، والتعلق ببعض الايديولوجيات التى ليست فى الحقيقية سوى خليط من الشعارات الجوفاء. ان التربية وحدها هى التى تستطيع أن تغير الانسان،أو على الاصح أن تمكنه من سلاح وأن توفر له الادوات اللازمة ليغير ما بنفسه وما بمحيطه ٠ ان الانسان تاريخ يصنع ذاته ومصيره ، وهو ينوء بحمل حياته ، ولكنه بوسعه ان يزيح الجبرية عن الواقع الذى فيه يتحرك، وان يتخلص من النسيج العنكبوتى السوسيولوجى الذى يطبع روح العصر ...

هذه التربية ينبغى ان تكون متواصلة وشاملة حتى تسمح ببروز كل طاقات الشباب البدنية والنفسية والذهنية . كما يتعين ان تندرج فى رؤية انسانية شاملة ، وان تكون ارادية المنزع هادفة الى تحسيس الشبان بقيم التجاوز والسيطرة على الذات وتتعهد فيهم عبقرية المبادرة وكذلك موهبة الحفاظ ، موفرة لهم فرحة العمل والحياة ونخوة المسؤولية ومضاء العزم ولذة الكفاح ، اى التجاوب الكامل مع « غيوم تال » عندما قال « انه ليس من الضرورى ان نؤمل كي نبادر ولا ان ننجح كي نثابر » وينبغى ان تكون التربية أكسيرا يزيل كآبتهم وجوابا منعشا عن سؤالهم عن « جدوى الاشياء » ويجب ان تعمل على ابقائهم شبابا دائما ، فى القلب والفكر ٠

انه لتأخذنى القشعريرة عندما أقرأ فى «الكراسات البيداغوجية» (رقم 147 اكتوبر 1976 ٠ فرنسا) : « ان ادخال الرياضة فى التعليم من شانه ان يجعل المدرسة رأسمالية اكثر فاكثر ووسيلة توالد للنظام ... الرياضة هى المباراة ، وتقنين للعدوان والعنف ضد الاخرين وضد الذات نفسها » ٠

وامام هذه النزعة اللا انسانية التى يتبناها عدد من أشباه المفكرين أتذكر قولة جيرودو الشهيرة : « ان اعداء الرياضة أمرهم عجب ، انهم يلزموننا ان نتحدث عن الرياضة ، وحينئذ فلأحدثكم كذلك عن الهواء والماء والثلج ... » .

أليست الملكة التى يكتسبها الانسان بفضل التمرين البدنى والمباراة الرياضية المشبعة بالقيم الاولمبية والتى تجعله يسيطر على بدنه ويحسن استعماله من اجل النشاط الحر الخلاق هى من مظاهر تحرير الانسان وتقدمه بواسطة الرياضة التربوية ؟ أولم يؤكد ج. ج. روسو انه « على قدر ضعف الجسم يكون تحكمه فيه وتأتى طاعته على قدر قوته » ؟ (*) ان المرء اذا تحكم فى بدنه تحكم فى الطبيعة وآنسجم مع علاقاته الاجتماعية ونزع عنه منزلة المحكوم السلبى والمتفرج العاجز · ان جسما هزيلا موهنا يكون فى الغالب مصدرا للعقد والاختلالات الاجتماعية الثقافية ، اذ يشكل عائقا فى مجال الفعل ورد الفعل بين الانسان وبيئته .

ان الانسان اذ يعيش فى وضع بيولوجى ما وفى اطار اجتماعى معين ، ينبغى له ان يتأقلم مع هذا الوضع وهذا التكييف متحكما فيهما بتحكمه فى جسمه ، فاذا ما أخفق كان عبدا واذ ذاك يحاول الفرار من الواقع فيغرق فى الحيرة ·

وهكذا تتمثل مهمة المسؤولين ، على مختلف مستويات المسؤولية . من أولياء ومسيرين ورجال تعليم وسياسة ، فى مساعدة الشبان على شق طريقهم والتوفيق بين ظمئهم الى الحرية والازدهار وبين الاندماج الضرورى فى اللحمة الاجتماعية والقدرة على الحياة داخل المجموعة والتعايش مع الاخرين · تلك هى بالتدقيق مهمة التربية الاصلية ، أعنى التربية التى تتبنى الرياضة باعتبارها وسيلة أساسية لتكوين انسان قوى بالمعنيين البدنى والاخلاقى ، اذ بدون هذه القوة التى يجب ان يعتنى بها لدى الصغار منذ نعومة الاظفار اى منذ فترة تكوين « النسيج » (كربلو Carballo) أو « التمثل الادراكى » (بياجى Piaget) فان الناشئة قد تطغى عليها نزواتها ، كما قد يختل عندها التوازن الضرورى بين الشهوات والكوابح ويتلاشى الازدهار الافضل للانسان ذلك الازدهار الذى هو اقصى غايات التربية الحق ·

واذا ما وقع تصور الرياضة كركن من اركان بيداغوجيا حقيقية فانه من المفيد ان نؤكد ، والوضع على ما هو عليه فى عصرنا هذا ، ان الامر لا يتعلق بالرياضة المشهدية او « **الرياضة المهرجان** » التى تتخذ من النجومية قاعدة لها وتتيح فيها تجارة الفرجة والتسويق الرياضى للجماهير الهائجة المائجة فرصة

(*) Plus le Corps est Faible plus il Commande. Plus le Corqs est Fort plus il Obeit

الصراخ والصياح امام فئات من الدخلاء على الرياضة تبرقعوا بابتسامات آلية واستعرضوا عضلاتهم المنكشفة من خلال ألبستهم النيلونية المزرية ٠ كما ان الامر لا يتعلق « **بالرياضة السياسة** » حيث يستعمل الشبان من قبل حكومات عاجزة بقدر ما هي غير مستقيمة للتدليل على تفوق ايديولدجيا أو نظام سياسي ما ، ولا يتعلق الامر كذلك « **بالرياضة التجارة** » التي يتحول فيها الرياضي وقد ابترد وجف قلبه ، الى لوحة اشهار والى دابة سباق ، ولا يتعلق الامر في الاخر « بالرياضة النتائج » التي تجعل الانسان مجرد كتلة عضلية في خدمة المردود ، حيث يستفحل مرض البطولة والكلف بالميدالية ، وحيث يبالغ في تدريب الرياضيين الشبان وفي « تنشيطهم » للالقاء بهم في حفرة الاسود .

ان الانسان ليزور عنهؤلاء ازوراره عنالسم ولكنه لا يقدر علىذلكلانمشهد بعض هذه الاجسام المحدبة وبعض هذه الوجوه المطرقة ، وبعض هذه المشيات المذهولة والمختلفة تذكره بواجبه نحو هذه الشبيبة التي تحركها بعض الاصابع الاثيمة وتستغل باسم ما لست أدري من منطق « النصر مهما كان الثمن » ٠ وهذا « التنشيط » المخجل الذي يتلقاه بعض الشبان بصورة سلبية ويتحمل مسؤوليته رهط من المرنين ، والاطباء مع الاسف ، ليبعث على التقزز ويتنافى مع ابسط مبادىء الاخلاق ومقاييس الجمال ٠

وان رؤية بعض المبلهين الذين تذكرنا وجوههم بانها جعلت لتصفع ، ورؤية بعض الرياضيات اي بعض الفتيات اللاتي « ترجلن » لكثرة ما تناولن من « الاسمدة العضلية » والانفيتامينات Amphétamines واستيرويدات الابتناء Stéroïdes anabolisants والمواد الكابحة Bêtas bloquants وغير ذلك مما لست ادرى ٠٠٠ كل هذا لا يشكل فقط ــ وخاصة في البلدان المتقدمة التي لا تفوت أية فرصة لتلقين الامم الفتية دروسا في الديمقراطية والوطنية واداب السلوك ــ اعتداء على حقوق الانسان وعلى ذاتيته البدنية والمعنوية ، بل انها تثير الاشمئزاز وقد تصرف المربين عن ممارسة النشاط البدني وتجعل الرأى العام منغلقا ازاء قضية الرياضة التربوية .

أجل ، امام استغلال الشبان بواسطة ما هو مسخ للرياضة وكذلك بواسطة وسائل اخرى اشتد ضررها اذ وسعت من ذيوعها وزادت في فعاليتها وسهلت استعمالها وسائل الاعلام وسطوة التكنولوجيا ، فاننا نحن المسيرين المتشبعين بالقيم الاولمبية ، نحن المربين الذين اخترنا ان نخدم الشباب ، نحن المسؤولين المخلصين الامناء ، لا نتردد في الاصداع بان الرياضة وسيلة نهوض بشباب اليوم ورجال الغد ٠

واذا كانت الالعاب الاولمبية تشكل خير اداة لنشر الرياضة وتبسيطها وديمقراطيتها ، فان المثل الاولمبى الاعلى ليس فقط ترياقا لكل انواع الشطط الراجعة الى صلف البدن والجشع الرأسمالى والى رذائل الفسقة ونقائص الشواذ التى تذل الانسان وتحط من منزلته ، بل انه يسمح بتجديد الانظمة التربوية وانعاشها فى كافة أقطار العالم .

ان الامر اذن لا يتعلق فقط بالزيادة فى ساعات التربية البدنية والرياضية ، وبتجهيز المعاهد المدرسية والجامعية بالمسابح والملاعب وقاعات الرياضة ، وبتكوين أساتذة الرياضة والممرنين ، بل يقتضى التثبت من الروح التى بها تلقن الرياضة وتمارس ، كما يجب ان يكون كل المدربين بالمدرسة وخلال التمارين والمباريات مربين قبل كل شىء هدفهم تهذيب سلوك تلامذتهم وطريقة لعبهم وفوزهم قبل اعتبار النتيجة .

ان ممارسة الرياضة يجب أن تكون مدرسة لتكوين الارادة وللتحكم فى النفس ، ويجب ان تمكن الشبان من معرفة حدود طاقة ابدانهم ، وفى الان نفسه تمنكهم من تعلم التحمل والمثابرة وحتى الصبر على الالم لتجاوز طاقة أبدانهم ورفع مستواهم بآستمرار ويجب ان تعدهم للحياة وخاصة الحياة التى تعقب المجد الرياضى الزائل . ذلك ان الحياة ليست تتابع انتصارات وافراح ، بل ان المهم هو الا تلعب بالراس حميا النصر فى حالة الفوز اذ الغرور لا يحسن الارشاد بل هو نذير خيبات مرة ، بل ان الرياضة الحق تعلم الحفاظ على المعنويات العالية فى حالة الاخفاق ، سواء فى الملعب أو الامتحان او الحياة الاجتماعية ، وان اعظم الهزائم تكمن فى الانكسار واليأس والهروب من الميدان ! وانما الاهم ان نحسن الكفاح ، ان نحسن المقاومة ! ان المحافظة على الروح الرياضية أمر لا جدال فيه . وما ادراك ما الروح الرياضية! هى الامانة واحترام قواعد اللعب واعتبار المنافس طرفا مقابلا لا خصما أو عدوا . . .

ولكن الامر لا يقف عند هذا الحد اذ لو فرضنا ان قطاع التربية البدنية والرياضية كان اكثر تعزيزا وأوفر تجهيزا وأحسن توجيها، فان ذلك لا يكفى، لان السجن الذى تحبس فيه الاحكام المسبقة الرياضة بالمدرسة ، سيبقى على حاله وستظل الرياضة فى المحل الادنى ، مادة اختيارية وترفا لا ينظر اليه بعين الجد .

ان ما يتعين القيام به هو تغيير العقليات فى مستوى المتفقدين والاساتذة الذين يدرسون كافة المواد الاخرى وخاصة العلوم الانسانية فى مراحل التعليم

الثلاث . وينبغي كذلك تحويل البرامج واثراؤها واشباعها بالقيم الاولمبية وبفلسفة كوبرتان ٠

وفي هذا المجال ، استحسنت كثيرا التقرير النهائي لاشغال الدورة الحادية عشرة لاطارات التعليم التي نظمتها الاكاديمية الاولمبية الدولية (اوت 1977) ، اذ اكد ذلك التقرير ضرورة تعزيز الجانب التطبيقي للتربية البدنية والرياضية بادراج دروس نظرية تتعلق بالاخلاق الاولمبية القائمة على تكامل القيم البدنية الذهنية والروحية ٠ وتنص التوصية رقم 7 فعلا على ما يلي :

« بما ان نشر المبادىء الاولمبية لا يمكن ان ينحصر في حدود دروس التربية البدنية فانه ينبغي ادماج هذه المبادىء في كل المواد القابلة لذلك ، مثل دروس التربية المدنية والفلسفة والتاريخ واللغة ، وذلك بادراج نصوص تبرز القيم الانسانية الجوهرية التي تشكل اساسا لكل نشاط رياضي » .

يتعين اذن على التربية الحق ، اجتنابا للكبت والاستلاب ، ان تمجد الجسم وان تساعد على اكتماله وكذلك على تهذيب الذوق وشحذ الذكاء وتنمية الضمير ٠ ولقد عبر « آلان » عن هذا بقوله : « ان أستاذ الفلسفة يحيل الى استاذ الرياضة الذي يحيل بدوره الى استاذ الموسيقى » . وهذا ما كان يريده بياردي كوبرتان ٠ تلك هي الحركة الاولية الاولى وبذلك يربط مجدد الالعاب الاولمبية الصلة بالحكمة اليونانية القائمة على التوازن والانسجام والجمال والفضيلة ٠ وهكذا يحق لنا ان نقول اننا نحيا عصرنا بقدر ما نستلهم حكمة اليونان القديمة ٠

وزيادة في الايضاح اقول ان الحركة الاولمبية ليست ترياقا لكل الامراض وليست الدواء السحري الشافي من كل الامراض التي يعانيها الشباب ٠ ان منزلة الانسان هي هي وليس الانسان ملاكا ولا وحشا ٠ انه قادر على الخير قدرته على الشر . والتربية الحق تطمح الى الرفع من مستوى الانسان والى تحريره واعانته على الاضطلاع بمصيره ٠ والا فانه سيحمل مصيره كالعلم المنكس ٠

ومهما كانت العقائد والايديولوجيات والانظمة السياسية ، فانه يمكن ويحسن ان نشبع الانظمة التربوية بالقيم الاخلاقية والجمالية والثقافية والبدنية التي تشكل لباب الحركة الاولمبية . اننا لن نذكر بالامر بما فيه الكفاية : ان الحركة الاولمبية ليست ديانة ولا مذهبا سياسيا ولا نظاما اجتماعيا واقتصاديا ، انها عقلية وقيمة حياتية ، انها رؤية انسانية ومدرسة نبل ونقاء اخلاقي ، وعبادة للمثل الاعلى الذي لا يطلب من ورائه شيء انها مجهود يبذل للرفع من تصورنا للشرف والكرامة الى مستوى اندفاعنا العضلي ، وانها بيداغوجيا

للجسم والفكر معا ، تهدف الى تحسين الذات البشرية والى الاكتمال المتواصل اللامتناهي للانسان الذي لا كينونة قارة له ، بل يكون ويعيد كيانه بلا انقطاع

ان المربين سواء كانوا من اعضاء اللجنة الاولمبية الدولية او مسيرين رياضيين في النوادي او أساتذة يحسون بأن مهمتهم شاقة ، ذلك ان ظاهر الاشياء يحكم حسب ما يبدو لفائدة أدعياء الواقعية « الذين لا يخضعون فقط للواقع والعبث وقانون المال وضغط الموضات ، ولكنهم لا يلبثون ان يتورطوا في كل ذلك ، وهم لا يفتؤون يرددون ضاحكين في هزء : بما ان بلوغ المثل الاعلى مستحيل فلنترك الحالمين يحلمون والمثاليين تهددهم الاوهام ، ولنتملق الشباب بما هو فيه زائل ولنغنم الحياة » وبذلك يسير الشبان على غير هدى من جراء قصر نظر الكهول وجبنهم وأنانيتهم .

ان بياردي كوبرتان الذي حبر ما لا يقل عن ستين الف صفحة لشرح أفكاره والاصداع بالكلم الاولمبي الطيب ، تعرض لابتسامة الهازئين وحتى لسخرية المتشككين ولزفرات المنافقين الذين فضلوا السلبية . بيد انه وثق بزملائه في اللجنة الاولمبية الدولية ، وبكل مريديه واصدقائه في العالم . واليهم وجه كلماته الاخيرة في براغ سنة 1925 عندما جاء يسلم مشعل رئاسة اللجنة اذ قال : « انهم سيواصلون بنفس الروح تسلقهم القمة التي نريد اقامة المعبد بها بينما تنتظم في السهل سوق صاخبة فأما المعبد فيبقى وأما السوق فتزول . وعلى الرياضيين ان يختاروا اذ ليس بوسعهم بلوغ القمة والقبوع في السوق ... فليختاروا » . (مؤتمر براغ) .

وعلينا نحن المربين والمسيرين ان نختار بين القمم ، طريق الشرف المجيدة وسبيل التجدد البشري ، وبين منحدر السهولة ودرك اليأس والخضوع للطبيعة والحيوانية ، وليس لنا في هذه الحالة من سنوى غير ترديد كلمة فولتير . « سنبقى العالم على ما وجدناه عليه من غباء وشر ».

ولكن وجودنا هنا في أولمبيا بالذات ، في كنف الاكاديمية الاولمبية التي تعلق عليها اللجنة الاولمبية الدولية عريض الامال لنشر القيم الاولمبية باعتبارها اداة تربية ونهوض بشباب العالم ، يقوم شاهدا على ثقتنا بالمستقبل ، ودليلا على تفاؤلنا والتزامنا بخدمة مثلنا الاعلى ، رغم ضغط التافهين وتصاعد الاخطار .

وعلينا نحن جميعا الذين نؤمن بالحركة الاولمبية أن نتفانى ونتجاوز انفسنا كي نهدي الشباب رجال الغد ونوجههم ونقودهم وليس بوسعنا ان نفلح في مسعانا اذا حدثناهم عن تعاستهم وعن شهواتهم ووساوسهم . اي اذا بقينا امامهم مشدودين الى الحضيض . فلنخاطبهم اذن بلغة المجهود والتجاوز والشرف والعظمة . ولنكن لهم قدوة . وحينئذ تزيد حظوظ اصغائهم الينا !

بكائية الوجد

شعر: البشير المشرقي

برغم المسافات تمتد
ما بيننا
ورغم دروبي المحاطة بالظلمة القاتمه
سيطفح بالشوق قلبي يا وطني
وتكبر صفصافة الحزن
آه ! فليت التوغل في الحزن ، في زمن الجدب كان مباح !
أنا من زمان حملتك يا وطني في الحنايا ..
قصيدة شعر ، غنائية الوقع ، منفية الوجه .
تهمسها للفراغ الرياح !
وضعت على الكف جرحي
وطوقته بالجناح
وفي الصمت مارست كل ضروب التهرب
أفرغت كل الكؤوس المليئة وجدا
فهل ذقتم يا أحبة قلبي للوجد طعما
وطرتم على صهوة الشوق حتى الصباح ؟
وهذي التجاعيد ! هل تعرفون متى خطها الدهر ؟

كانت على صفحة الوجه
منذ احترفت الصبابـه !
ومنذ افتقدت القرار
وعلمت ان التوغل فى العشق .. فى زمن الجدب
لون من الموت والانتحار !
بكائية الوجد يا وطنى ابتدأت
بابتدائك ، فالحب يا موطن الحلم درب طويل
وها اننى فى ثناياك ــ رغم المسافات ــ
أختصر العمر ..
أعدو مع الريح ..
أعبث بالمستحيل .. !

مجموعات شعرية تونسية جديدة

صدرت أخيرا فى تونس عدة مجموعات شعرية للشعراء تونسيين

صوتى .. مقلوع الاظافر	**احميده الصولى**
أقسمت على انتصار الشمس	**المختار اللغمانى**
شــواطىء العطش	**الصادق شرف (أبو وجدان)**
البحر فى كــأس ..	**محمد أحمد القابسى**
ضحكات عيون بــاكية	**فاطمة الدريدى**
الغام فى مدينة بريئة	**محمد عمار شعابنية**
من مذكرات خماس	**الميدانى بن صالح**
فى البحث عن مقــر	**البشير المشرقى**
عيناك والتراب الأخضر	**أحمد المختار الهادى**
أحــزان	**سالم الشعبانى**
إبحار فى الزمن الغارق	**بلقاسم المرزوقى**
من الاعمـــاق	**محمد الصغير**

لحظة هذيان أو بين كاتب وجمهوره

بقلم : البشير المجدوب

« كل هذه الحركة والقيل والقال والضوضاء من أجلي ؟!

وهل صنعت شيئا سوى أني خلصت من ألمي ، وتطهرت من قلقي وحيرتي ، وأعدت الى نفسي توازنها وقرارها .. أمر طبيعي لا غرابة فيه .. واذا الناس يعتدون لك ذلك حسنة ، ويعجبون بك هتافا وإعظاما ، ويمطرونك ثناء وتقريظا !

ماذا يعنيهم ؟! أهذا من شأنهم ؟!

إنها حياتي الخاصة .. الخبيث منها والطيب ، أتصرف في شؤونها تصرف المالك ولا شريك ولا رقيب ، أدمج شيئا في آخر وأمزج هذا بذاك ، وأظل أطبخ لنفسي طبخات غريبة .. أطعمة لا عهد للناس بها أتلهى بها عن سخفي وتفاهتي ، أذوق من هنا تارة ومن هناك طورا ، ويتصاعد البخار الى دماغي ، فأنتشي وأتعاظم وأتطاول،وقد صرت في طرفة العين عملاقا ... لعبة أكررها كلما شاقني شيطاني ، فآنس به ويأنس بي ، ونتفكه ونتندر لهوا كأنه الجد ، وجدا هو عين الهزل ...

فهل هذا من شأنهم ؟!

وأكاد أصيح بهم : دعوني وطيشي ونزقي ، أتخبط سكران في لوثتي وجنوني !

ماذا يهمكم !؟

إنه بيتي .. مسرحي الخاص ، أفصل فيه لشخصي أدوارا وأدوارا ، كأن البشرية بأكملها قد تجمعت في أزخر بها وأموج .. خضما قائما بذاته .. حتى كأنه الكون بأسره .

ولا أفرغ من لهوي وعبثي حتى أزهد فيه سآمة وغثيانا ، وأدفع بالصحيفة عني بعيدا .

أف من الكتابة ! لقد قضيت وطري منها ، فلأحى كما يحيا الناس .. عيشا سويا لا كلفة فيه .. ساعة خالصة الى أن يعاودني جنوني وولعي بنفسي ، أترصدها وأتجسس عليها ، أتفحصها وأدس النظر في ثناياها ، وأنهبها كاللص الشره الجائع نهبا حتى تضيق بي وأضيق بها ، ونتجافى لنلتقي من جديد ، ونتخاصم لنصطلح ثانيا وهكذا بلا فكاك .. داء عضالا لا شفاء منه .. حلقة مفرغة لا معنى لها ! إلا أن أنتشي بالدوران فيها .. نوبة كرقصة الدراويش .. كحمى الربع أخافها وأنشدها ، وأتضايق منها وأنا حريص عليها ...

وأدفع بالكتاب أو الصحيفة عني بعيدا ، فلربما أعود اليها يوما بشوق جديد ... من يدري ؟! ولربما أفرح باللقاء .. لقاء الذات .. صورة أو قبس منها بعد غياب طويل حتى ليكاد يشملنا النسيان فأنكرها وتنكرني .. توأمان تيتما قبل التعارف والوصال ...

من يدري !؟ قد أعود اليها ، ولربما أفرح وأسعد ، ولكن هيهات ! لن أجد فيها روعة الحب الاول ونضارة الطفولة الوليد . لقد مات سحر الخلق ساعة ميلاده ولن تستثير وإن جهدت ، النشوة من جديد !

لا بأس ! فليكن كتابي الاخير وصحفي الماضية مجرد أصدقاء .. أصدقاء نتشوقهم من حين الى حين ، نرتجي زيارتهم ونعدها غنما ، ونضيق بهم لو انتصبوا في حياتنا ، وآثروا المقام كالضيف الثقيل على الدوام ...

فهل هذا من شأنكم !؟ »

بلا عنـد ...

قصة : حياة بن الشيخ

يوم آخر فاحل كحقل بهشه الجراد وأحرقته الشموس الحانقة ، يوم آخر راكد كمياه المستنقعات الضحلة ، ممل كسنين الفراغ العقيمة .

السيجارة الألف . الكأس المائة .. ووجهك الغامض المثير كعوالم الاساطير النائية ، وأنا هنا وسط أدغال الضياع الملم رماد عمرى فى كانون الشجن ، أضفر أيامى جدلية فاحمة الحزن لأطوق بها رأس الزمن .

ليلة أخرى كئيبة مملة تسحقنى وأنا أتمرغ على نار الذكرى . أتمزق كدمية من القماش المهترىء فى يد طفل عابث يريد أن يفتتها ليعرف ما بداخلها كقطى الاسود الصغير الذى قتلته فى يوم ما وبقيت أرنو الى أمعائه مشدوهة مذعورة كأننى أكتشف عالما مجهولا غريبا عنى. قيل لى يومها : إن آلاف الارواح الحاقدة التى تسكن جثة القط ستنتقم منى وستظل ، تطاردنى أبد الدهر .

الليل طويل حزين يتمطى برعب كخرافة مهولة تتمطى فى ذهن طفل خائف، وقد كان الليل جميلا ، مثيرا حينما كان يتمطى باغراء غادة حسناء فى عينيك السوداوين ، غامض الفتنة ، متمرد الاسى يغرقنى فى شلالاته البهيجة . فأبقى كفراشة نشوى تحوم حول نار مشتعلة يخفق قلبها طربا للظلال الحمر المتراقصة ، وترتعد نفسها خوفا من الاحتراق بنيرانها .

أبقى العاشقة الحزينة الهاربة من مغاور الشجن ، أتدحرج فى عتمة الليل كعذراء تائهة فى معبد ناء تبحث عن إله مجهول نذرت أن تذبح شبابها قربانا لرجولته الصاعقة .. تذوب بين أحضانه تنتشر نشوة مفجعة الشوق ، ولذة مدمرة اللهب تحيل الكون نيرانا فى مدفأة الضياع .

فأود أن أبكي .. أناديك .. أسأل الليل عنك . أنت يا رجلا يفجر فى قلبى ينابيع الشوق والحب والحنين . أنت يا بركان لذة محرقة الرغبة ، متـوحشة العويل . يا إلاهى الشارد فى مدن بعيدة.. بعيدة.. تتسكع الملائكة فى حدائقها باسمة ، وتسبح عرائس البحر فى مياهها اللازوردية . أين أنت .. أين ؟

الثالثة صباحا .. وأنا والذكرى والليل الطويل أتلظى على نار أسـاى .. مواء قط أسود ، ذبحته فى يوم ما لأتلهى بأمعائه يصدح فى أذنى ، وزعيـق آلاف الارواح الشريرة الباحثة عنى منذ سنين يلح فى تمزيق فكرى .. وأنـا هاربة ، هاربة من مغاور الشجن ، حيث ترسب أنت فى أعماقها كبركان ثائر الدفء والرغبة المسعورة التى تسحقنى لتتركنى لا شىء . حفنة تراب معجونة بين يدى فلاح فظ لا يبالى ، يفتتها بين يديه الخشنتين . ثم يلقى بها فى حقله الشاسع الغارق فى الشموس اللاذعة .

عيناك تترصدان خيالى المتعب . تخنقان مهجتى . أترنح ثملة بعبيرهمـا المسكى ، حديقة مكتظة الورود تعبق بألف عطر فواح الشذى ، قاتل العبير ، أترنح .. أذوب أذوب فى عوالم غريبة ، سحيقة ، المدى ضائعة كمركب تاه فى المحيط ، مات ربانه ، يبحث عن مرفأ دون أن يجـد لمرسـاه طريقا . تخنقنى ذكرى ذات ليلة ، لم أشرب كأسا واحدة ، ولم أدخن سيجارة واحـدة ، إنما كنت ثملة حد الجنون ، نشوى لحد الهوس ، أنهل من وجهك الـذى يتنـازع السحر من ضوء القمر النادب فى سماء كبيرة الخاطر ، وأشـرب من عينيـك المتخمتين بأشهى معانى الوجود ، وألذ أفراح الهوى . رأسى فوق صـدرك ، وذراعاك تطوقان خصرى المرتعش كغزال خائف يرتعد شوقا ولهفة .

النور .. الناس .. والليل وأصداء موسيقى شيطانية تتزاحم حولنا . وأنا وأنت كنجمين ، غريبين قد هاما معا فى أفق مشرق وضىء . لم أكن أدرى أنى كنت أعيش لحظات الحب والموت ، وأنى كنت أتسلق جبل النـار الـذى سأشوى على سفحه وأصلب فوق هضباته المغـروسة بالصبـار والحنظـل . وغرقت .. غرقت فى معزوفة الحب والموت ، واجتاحتنى تيارها . كنت أقبـل عنقك الشهى ورقبة فتاكة تستلذ لى أن ألتهم العنق البض المغرى . ألتهم كل قطعة فيك . لا أترك شيئا من الجسم المنثنى بين يدى كفض يتأرجح طربا مع نسائم السحر فىأزهى أيام الربيع.ودون أن أعى كان وشم شفاهى الحمر يرتسم فوق عنقك وفوق رقبة القميص الحريرى . كان وشما أحمر ملتهبـا كدمـائى المستعرة المصطخبة فى شرايينى . لم ألاحظ آثار جنونى المرتسمة فوق صفحة جلدك الناعم كما لم تنتبه أنت لوشم الشفتين الظامئتين فوق القميص الحريرى.

لكنى فى الغد قرأت اتهاما صريحا فى مقلتيـك الغاضبتين (وقـد نبهـك الاصدقاء وهم ساخرون الى الوشم الاحمر الملتهب) قرأت الحكم باعدامى حكما صارما شرسا لا رجاء بعده .

قلت بصوت مشاكس النبرات كبحر ثائر يلفظ أمواجه : كان كل أملك أن تترك آثار الاحمر مرسوما فوق عنقى لتعرف هى والجميع أن هناك أخرى فى حياتى . يالك من أفعى تتركين آثارك فوق الرمال كأنك تتحـدين الصحـراء بذلك ،، تقولين جهرا ها أنا مررت فوق هذه الرمـال الـذهبية ، فاشهـدوا آثـارى .

ولا أسمع نهاية ما تقول ، يعمى الضباب عينى ، بينما تختلط الافكار بعقلى المتناثر وأضيع ، أضيع فى دوامة الصراع الابدى الذى دمرنى منذ عرفتك دائما هى ، أراها منتصبة أمامى كلعنة صارمة لا تنزاح عن كاهلى ، أرتطم بفظـاعة مأساتها أينما رحت ، وأتعثر فى وحل مرارتها أينما حللت .

ولم تسمع ابتهال قلبى المعذب ، ولا أذابت جليـد فـؤادك لـوعة تعاستى المتراكمة على قرن عمرى الشقى . عادت هى وهم يجذبونك نحوهم . يجذبون حبل ترددك لتعود تغوص فى بؤرتهم ، تبحث عن نفسك ولا تجدها ، تخـدر عقلك بزيف مبادىء لا تصرح بها ولا تفهمها ..

لا أزال أترنح فى هودج يأسى والنار تندلع بصدرى . والعواء لا يخفت .. يفتتنى .. يمزقنى .. لماذا أقبل الحياة دونك صاغرة ذليلة ؟ لماذا ؟ لماذا أسير فى منعرجاتها الملتوية فى مسكنة طفل يتيم جائع يبحث عن ثديى أمـه فتقدم له عروس البؤس نهدين مترعين يقطران برحيق حامض كالدفـلى تنـزل الى أعماقه فتجهضها . لماذا كتب على أن أحيا ولا أحيا !! أن أموت ولا أموت !! أن يسفك دمى على عتبة الدنا ولا أعيش لحظة واحدة مفاتن الدنا ولا أعى مباهجها!! أعيش دهرا أتعثر فى هوة ضياعى معصبة الافكار ، مغمضة العينين ، ثم فى يوم ما أفتحهما على لا شىء . أفتحهما لأرى عـذابى يتضخم ويتضخم كـورم يأكل من عضدى لا أقدر على تحمله ولا أستطيع التخلص منه ، وحيرتى تتفاقم وتتفاقم حتى تغدو كسد منيع يحجب عنى طريق غدى .. وأحيـا ولا أحيـا !! وأموت ولا أموت !! أتيه فى دوامة الحياة التى لا أفهمهـا . أسير .. أسير ولا بد دوما أن أسير غير أنى أرفض الوجود الذى لا تبهره أنت بسنـاء طلعتـك أرفض الشهد إن لم أعتصره من شفتيك المطبقين على أسرار الكون وأعاصير

الغرام . أرفض الجنة التى لا تعبق أجواؤها بعبير رجولتك القاسى المسكر .. أرفض .. أرفض .. أرفض ..

★ ★ ★

خيوط الفجر تتصارع مع غلائل الظلام . تكاد تنتصر عليها كأنها تتحدى رغبتى الراسبة فى أعماقى المشتتة . أكره الفجر .. أكره النور .. أكره النهار. أصبحت كالخفاش لا يحيا الا ليلا . يخشى أن تصفعه أنوار النهار . وما العمر الا ليل قاتم بعدك . ليل بلا آخر . بلا قاع . بلا حدود .

لا يمكن للفجر أن يبزغ وأنت بعيد . لا يمكن للشمس أن تتهادى فوق بسط السماء ، تختال فى شعاع شعرها الذهبى وأنت لست قربى . ولا حياة بعدك . لا نور .. ولا ضياء ، الا الظلام يلفنى بين أكفانه السوداء فأشعر أنى أستريح بعد رحلة مضنية ، أنهكت قواى وامتصت رحيق الحياة منى ولم تترك شيئا فى هيكلى الممزق .

سأبقى غريبة .. وحيدة كصدفة مثقوبة ملقاة فى قعر بئر عميقة عميقة ، اجتر مرارة أيامى الحزينة وأملأ دمعا قشور صدفتى المهترئة .

★ ★ ★

أنزل الأسترة على النوافذ المتفتحة على سماء متجددة ، منتصرة بفجرها الذى يصارع غلائل الليل . يعود الظلام يسود معبدى الصغير ، تطالعنى صورتك فى بروازها الذهبى اللامع تونو الى باستكانة ساخرة ،، شعور مرعب يدمر نفسى المفتتة . أنهار على البساط وأنا أحس أن آلاف الارواح الخبيثة تتسكع فى الغرفة مزمجرة حاقدة ، راكضة خلفى تحاول أن تخنقنى انتقاما لقط صغير أسود قتلته فى يوم ما ، وتلهيت بأمعائه بغير سبب .

أشعل سيجارة . طعمها متوحش النكهة كشفتيك لما كنت أعتصرهما بين شفتى الظامئتين دوما لقبلاتك النهمة التى تصفعنى بخدرها فاسقط صريعة كطفلة صعقها تيار كهربائى مفاجىء ليوديها قتيلة .

الكتب .. الاوراق .. الصور مكدسة فى كل جانب فى فوضى عجيبة وخيالك يركض حولها ، يركض فى أجواد الغرفة المعتمة . خلال النافذة المغلقة على خيوط فجر مشاكس يريد أن يبزغ رغما عن مقاومة الليل ورغما عن صدى نحيب ملتاع يزحف بين الكتب ، والاوراق التى خططتها من أجلك ، أذبت فيها عصارة مهجتى وقطرات عمرى التائه فى منابع وجهك المشرق الشارد .

وأنا أملأ الدنيا أشعارا ، أكتب وأكتب وأعصر قلبى مدادا لأخط به حكاية حبنا الخالدة عبر الزمن ، الحائرة منذ الازل فى دموع ليل سرمدى لا ينتظر صبحا أبدا ، يظل خيالك يركض أمام مقلتى اللتين أجهدهما السهر ، فى أعماقى التى فتتتها أعاصير الهزيمة . يركض يركض وأنا لاهثة خلفك أريد أن أبكى .. أن أضحك أرقص كما رقصت ذات ليلة بين ذراعيك رقصة الحب والموت وأذوب مع اللحن وجدا وحنينا .

ظلال حمر قاتمة ترقص من أعين الجمجمة المرصوفة فوق الحائط ، أبا جورة لعينة ترعبنى وتغرينى فى لحظة واحدة ، أشعر أن آلاف الارواح الحاقدة تنحشر فيها . أرمقها بذهول . صوت الموت فيها ينادينى . خيوط الفناء الهائمة حولها تزحف نحوى ، تحاول أن تغللنى ، حشرجة تصطخب بصدرى الموجع ، لا أستطيع أن أصرخ . لا أقدر أن أبكى . أوراقى المبعثرة ترمقنى . أشعارى الساخرة من فجيعتى تصفعنى .

أحلامى المكدسة فى الركن تتمطى مولولة ، عشرات الأفاعى الكسيحة تتلوى فى رحم الغرفة المظلمة .. فحيحها يخنقنى . أستسلم لتمردها المفاجىء . أجسامها اللزجة تتزحلق فوق جسدى المصلوب ، تأكل من لحمى المحموم .

الظلال الحمر يذوى بريقها ، رقصة الموت تخفت موسيقاها الجنائزية ، وأنا أرتعد . يعود وجهك يخرق كثافة الظلام . عيناك تسطعان ثانية . لؤلؤتان تلمعان فى إصبع بطل أسطورى مثير الشمائل . أعانق طيفك الراكض فى دروب أجفانى . أحاول أن أنام وأنت معى كبركان ثائر الدفء ، أحترق ، أحترق وسط جمره المستعر ولا أمل إحتراقا .

غدا !!! ترانى أستطيع أن أحيا ذاك الغد العنيد كالزائر الثقيل ما أن يرحل حتى يعود أشد ثقلا وسأما .

لو توقف الزمن ، لو انتحرت الحياة ولفظت أنفاسها كلحظات الوصول التى ذوت وهبت عليها رياح النوى منذ زمن بيننا . يموت الكل كما ماتت البسمة بين شفتيك وكما فنت نشوة اللقاء الذى كان يجمعنا فى غاباته الشاسعة . هل حقا يمكن لى أن أواجه الكون وأنت لست بجانبى ؟ هل حقا إنطفأت منارتى وكتب لسفينتى التائهة فى بحار حبك أن تظل ضائعة بلا أمل أن تجد مرساتها فى يوم ما ؟ هل كتب على أن أظل أبد الدهر دمعة حائرة فى مقلة الزمن : آهة حزينة فى قلب ليل سرمدى ... لوعة كسيرة فى سمفونية مات موحى أنغامها دون أن يكمل مقطعها الاخير ، فبقيت نغمة مفككة .. باكية تبحث عن نهايتها

المفقودة . ما أنا ؟ ماذا أكون بعدك ، قيثارة مزقت أوتارها ، عبثت بها أيدى فنان مغرور ، لا مبال صدفة مهشمة فقدت نصفها فى بحر مجهول عميق الاغوار فبقيت فوق الرمال تتمرغ باحثة عن نصفها الثانى ، عن كيانها الذى شرخ الى نصفين .. ماذا أكون بعدك ؟ وما الحياة دونك ؟

غدا يسطع الفجر رغما عنى وتشرق الشمس رغما عنى ويخرج النـاس الى الشوارع كسرابات نحل منتشرة فى الحقول تبحث عن عش عسـل تخـرج رغمـا عنـى . ويمـوت أنـاس ، ويستقبـل الحيـاة أنـاس رغمـا عنـى .. ويبكون .. ويضحون .. ويتناسلـون .. ويتشاجـرون رغمـا عنـى . لا بـد للحياة أن تسير رغما عنى . لا أستطيع أن أشل خطاها مهما فعلت . لا يمكن لى أن أوقف دورة الزمن اللاهثة ، لا بد أن أبقى أتدحرج فى سراديب الحيـاة رغما عنى . أفكارى لم تستطع أن تشل غير حياتى ، وجنونى وعربدة أحلامى لم يوقظ الا فى عرقلة خطاى المتعثرة فى دروب الاسى القاتمة . الكون يحيا دونك ، لكننى أنا لن أحيا بعدك أبدا . لن ألثم نور الفجر الفضى وأنت بعيد.. لن أعصب رأسى بخيوط الشمس الذهبية وأنت ناء فى مدنك الضبابية التى لا أعرف لها طريقا .

غدا لا بد أن أجتر مأساتى ثانية .. أجتر عمرا ضائعا . أتعذب وأتمزق فى كل لحظة أمام شبح مصيرى المرعب .. ولا أنسى أبدا .. اذ لا يمكن أن انساك أبدا . كؤوسى المائة التى شربتها بعدك لم تغرق أفكارى فى يمهـا الحـالك . سجائرى الالف التى دخنتها وأنا أداعب صورتك الراكنة فى زوايـا معبـدى المهجور لم تطفأ زوابع روحى . غدا سيلتف بى الجميع . ينظـرون الى جسمى المتعب . يسخرون من أفكارى المشتتة ، يطلبون منى أن أحيا ، يحاولون هتك قداسة معبدى المظلم الـذى أقسمت أن لا تـدخله شمس بعـدك ولا قمـر ، وسيتسلون بمأساتى وفجيعتى .

رغما عنى أفكر فى الغد وأنا أعرف أنه لا غد بعدك . دفنت غدى مذ أردت لى أن أدفن حبك فى قلبى . ودفنت عمـرى حين ألقيت بى فى أدغـال الاسى والألم وقلت بتحد شرس : إنى راحل .. فلم أعرف بعدها للغد طريقا .. ولم أع من يومها للحياة حقيقة .

* * *

أسمع أنين الشارع يستيقظ بعد ساعات سباته . يعود يضـج بفحيحـه المعتاد . النور بدأ يتسلل رغما عنى عبر النوافذ المغلقة . الجمجمـة تـرمقنى

بسخرية مرعبة ، تتحدانى نظراتها الملتهبة كنار أوقدت فى غابة كثيفة الاشجار لترقص على ضوء شررها قافلة من الزنوج .. أوراقى المبعثرة . وأقلامى ، وسجائرى وكتبى ترمقنى باستنكار خبيث . تصفعنى بازدراء . تتحدانى أن أعيش ولو لحظات فى غد أنت لست فيه .

لن أقدر أن أمنع الحياة من الدخول الى وكرى الوثير حيث نذرت أن أظل العمر أصلى لحبك الجبار المتغلغل فى كيانى وأحرق أيامى بخورا لطيفك الشارد. رغما عنى لا بد أن أرحل وقد كان لا بد أن أرحل من يوم أن قرأت فى صفحة عينيك المثيرتين : خلقت لتعيش بلا غد . عمرك ساعات . أنت كسمكة مرجانة تسبح فى مياه بحر مسحور القاع ، تفقد الحياة إن خرجت من مياهه . ستموتين بعد أن أرحل عنك . لا غد لك بعدى ، وأنا أعرف هذه الحقيقة لكنى رغما عن ذلك سأرحل نحو جزرى الضبابية التى لن تصلى اليها أبدا . لا بد أن تموتى بعدى . لا بد . هذا قدرك يا فتاتى . لا أحد يستطيع الهروب من قدره..

فأود للمرة الاولى فى حياتى أن أصرخ فيك . أتحداك . أزلزل صخرة حبك التى تهد قلبى الصغير . أصفعك بتمردى ، أنت يا إلاهى الماكر الذى حكم على بالضياع والموت والعذاب الابدى . يا من كتبت ببسمة شاردة مصيرى المرعب على صفحة الدنا ، وخططت بدم شبابى مسيرة أيامى ، فلم أعد أقدر عنها حيادا .

أود أن أحطم صنمى .. أهجر معبدى . أحطم الجمجمة الهازئة من شوقى وحيرتى ، أحطم ، وأحطم .. وأحطم .. لكننى لا أفعل شيئا ، بل لا أملك الا أن أحبك .. وأحبك .. وأحبك ..

الصبح يغزو عتمة الغرفة . ألملم اليأس عن أهدابى . أجمع أشتات حزنى المبعثرة حولى . صوتك القوى المتبرم كصوت كاهن ملول يهتف برعية ساذجة . يحثنى على الرحيل . أجمع أصنامى . أجمع كتبى ، وأشعارى وصورى ، لأهرب من المدينة المستيقظة على فحيح الحياة الذى لا يخفت ولا يموت .

أسير .. أسير فى الشوارع النصف خالية المتخبطة فى أحشاء الظلمة المحتضرة . أدخل الى المقبرة فى خطى متعثرة الامل . عرفت دربى . وجدت

منارتى . ووجدت مكانى . هناك مستقر الارواح التـائهة التى كتب عليهـا أن تعيشى بلا غد .. بلا عمر ، بلا مصير مفجع يفتتها .. بلا غرام بائس يسحقها.. بلا عينين مثيرتين تدفعانها الى الرحيل .. هناك سأدفن حيرتى وحبى ، ولوعة أيامى الحزينة .

أجد فأسا . آخذه بيد مرتعشة . أبدأ أحفر .. أحفر . مدينة الضياع تكاد تهوى على رأسى . يلاحقنى ضجيجها وأنا قد هربت منها . هربت من غدها المنغمس فى مستنقع اليأس والتشرد . هربت من يومهـا المشحـون بالبـؤس والشقـاء .

لا غد لى . مات أمسى وانتحر حاضرى مذ قالت لى عيناك أنه لا غد لى .

حارس المقبرة ينتحب أمامى متسائلا . كتلة من الرعب والدهشة . أبتسـم وأنا أرمقه من خلال أغشية الاسى المتراصة فوق أعينى .

إنى أحفر قبرى ألا ترى . كتب فى عينى حبيبى أن لا يكون لى غد . لا بد أن أرحل قبل أن تبزغ الشمس . حكم حبيبى أن لا أرى النور أبدا لذا قد نذرت عمرى لاله الظلام .. إنه قدرى ، هل يمكن أن أهرب من مصيرى ؟ يولى الحارس هاربا . أرى خطاه المرسومة فوق العشب الندى كخطى كلب خائف من سرب ذئاب تطارده .

أبتسم بقرف ثم أعود أحفر . الهوة تتسع .. تتسع أكثـر فأكثـر ، أرمى كتبى ، وأشعارى المشبوبة غزلا بعينيك اللتين قرأت فيهما نهايتى المرعبة فى ليلة حزينة ، حزينة .

أرتمى فوق سريرى المترب . أغمض عينى المجهدتين . ألمح طيفك يبتسم لى . لاول مرة يبتسم لى . أقترب منك .. أصل اليك .. تضمنى ابتسـامتك . أعانقك وطيف ظلال مثيرة تغمرنى .

وجدت غدى . وجدت حاضرى .. وجدتك أنت . أخيرا أتيت .

حياة بن الشيخ

رسامة ليست لي ولست لها

شعر : زورق الشاطئ

أغدا يا دانه تلقاني وترضى
بخلايا من بقايا الجسم مرضى
انما القلب على النار تلظى
هده الشوق وأضناه وعضا

ارحميني
قربيني
فعسى قلبك للشيخ يميل

* * *

غسل الدمع مآقي الحزينه
وبكى القلب لمأساتي الدفينه
ليتني كفنت أشواقي اللعينه
ليتني ما كنت في هذي المدينه

لألاقي
ما ألاقي
مصرعي في حانة الحب الدخيل

* * *

أنا لم يحدث أ نانهار كياني
تحت أقدام المغاني والغواني
مثلما انهار ، وقد أضحى يعاني

عندما الصدفة أولاها زماني
فرأيتك
وعشقتك
وتهاويت بوجداني الذليل

* * *

لم أكن أفقه من هذا الوجود
غير شغل وركوع وسجود
فاذا الشعلة من تحت اللحود
تقذف الحمى الى قلبي السعيد

عانقيني
قبليني
قبل أن ينهدم الجسم العليل

* * *

أي حمى روعت كامن نفسي
قذفت بالنار في أعماق حسي
أتلفت من قبضة الحكمة رأسي
وتولت كسر قيثاري وكأسي

فلماذا
كل هذا

يحدث اليوم وقد حان الرحيل

* * *

أبدا يا دانه انى لست أنسى
حبك المحموم ما أضحى وأمسى
كلما بات سعيدا أو تأسى
أبحر القارب أم خاف وأرسى
فجمالك
ودلالك
روعة فى روعة دون مثيل

* * *

فسواء عشت أو مت قريبا
كنت فى الكون سعيدا أو كئيبا
كنت للناس غريبا أو حبيبا
كان لى الدهر يسيرا أو عصيبا
فشؤونك
وشجونك
أبدا يحملها قلبى الكليل

* * *

أشعر اليوم وقد ضاق مجالى
فى وجود جامع صعب المنال
أن عينيك معين من جمال
أن نهديك منار من جلال
حدثينى
كلمينى
صمتك المر لقلبى مستحيل

* * *

كل ما فيك ظريف متأنق
ناعم غض طريف متألق
ريشة ملهمة باللون تنطق
وأريج فى ثنايا الرسم يعبق
ليرينا
ما حيينا
قبسا من شعلة الوجد المهول

* * *

أغدا يظهر رسمى المتوهج
رسم آفاق وبحر متموج
رسم أغصان وسيل متعرج
رسم حب رافض كل تبرج
يا لشوقى
يا لتوقى
للقوام ينشر العطر الجميل

* * *

هل أنا يا دانه فى تلك الانامل
شغف غذته أضواء الاصائل
وسقاه الخمر ممدوح الشمائل
أوشكت احزانه أن تتضاءل
فتثنى
وتغنى
ساكبا فى اللوح فنا لا يزول

* * *

أنت تاجى وأكاليل حياتى
أنت دقات فؤادى يا فتاتى

أنت حلمي يقظا أو في سبات
أنت نبضي مسرعا أو في اناة
أنت شعري
أنت نثري
أنت دنياي وتمثالي الجليل

* * *

جسمك الغض تراءى لخيالي
ساهرا قربي على طول الليالي
لم يغادرني ، ولم يشفق بحالي
أترى هذا حرامي أم حلالي ؟
لست أدري
هل لبدري
من وراء الغيم يهديني السبيل

* * *

غرد الطير فأغراني صداه
ورمى الزهر على قلبي شذاه
فاستنارت لي مصابيح الحياه
ورأيت السحر في صنع الالاه
في شفاهك
في بهائك
في عيون أترعت عمق الغليل

* * *

أترى يا دانه يرويني وصالك
أم ترى تنسد في وجهي المسالك
ولعي شل من العقل المدارك
وقضى بالعيش في صلب المعارك
أتمالك ؟
أتهالك ؟
أم أمني النفس بالنزر القليل

* * *

أنا لا أرضى لحبي ولحبك
أن يموتا ، لا بربي وبربك
وضعنا منقبض قاس ومشبك
فاذا أزعجك الوجد وأربك
فتعالي
نتفاني
ويكون الحب مفزانا النبيل

* * *

لا تخافي يا فتاتي ، لا تخافي
كلما أبصرت آفاق الفيافي
حبنا رسم ولحن وقواف
حبنا وصل وتيه ومناف
سوف يشقى
سوف يبقى
دون أن يفنى على الدرب الطويل

زورق الشاطىء

رأي في القصص الشعبي

بقلم : التهامي نقرة

كثيرا ما يمتزج فى القصص الشعبى تاريخ شعب باحلامه ، وواقعه بخياله ومعتقداته بأساطيره . وقد اخذ الانسان بحكم تطور فكره فى تفسير العلاقات الطبيعية بين الاشياء ، وبين الاسباب والمسببات يتحرر من الخوف الذى كان يستحوذ عليه من قوى الطبيعة الهائلة ويخلص من الافكار السوداء التى كانت تستولى عليه حين يرى العالم كأنه طلاسم وألغاز تسيره قوى ماردة ، ليتحول الى عالم انسانى ملئ بالوقائع العجيبة ، والمغامرات البطولية أو نحو ذلك مما يستهدف اثارة الدهشة والخيال والاعجاب .

وأكثر هذه القصص لا تسير فيها الاحداث سيرها الطبيعى كما تقتضيه سنن الحياة ، لكن تسيره قوى سحرية تصنع الخوارق ، وتهيىء الصدف وتخلق الظروف الملائمة لتمضى به فى المنهج الذى رسمه القاص الى النهاية .

ومن هذا النوع مثلا قصص ألف ليلة وليلة ، والعنترية ، واحداث سيف بن ذى يزن ، وابى زيد الهلالى والجازية ، ومجون ليلى ، وحمزة البهلوان ، وفيروز شاه ، وجان دارك .

ويختلف النقاد فى نظرتهم الى القصص الشعبى باعتبار مصدره . فيرى (مكسيم فوركى) أن أروع ما صنعه الشعراء هو مستمد من القصص الشعبى، ذلك النبع الزاخر بكل ألوان النماذج والصور . فالشعب هو صاحب الحكايات والاغانى والامثال .

ا نعطيلا الحقود ، وهملت المتردد ، ودون جيون المغرور ، كل هؤلاء وأضرابهم نماذج أوجدها الشعب قبل أن يولد شكسبير وبيرون بزمن طويل،

والشعب هو الذى أنشأ أسطورة (فاوست) ليسجل من خلالها عجز الفرد الذى يحاول مقاومة القوى الشعبية ، وليسخر من فلسفته ، محاولا أن يكشف ما استغلق على المعرفة .

وان متلون ، ودانتى ، وڤوت لم يرتفعوا الى القمم الشامخة الا حين استمدوا خيالهم ووحيهم من الشعب ، إذ هو بعيد الغور . شديد التنوع ، عميق الحكمة رغم ما يبدو فى قصصه وأمثاله من سذاجة ! ويرى (شارل لالو) أن الفن الشعبى ينطلق انطلاق الازياء من الاعلى الى الادنى ، لا العكس . وهو فى الحقيقة فن ارستقراطى صار شعبيا باتصافه ببعض صفات البساطة التى جعلت جمهورا واسعا يتبناه . بعد ان نالت منه تشوهات متعاقبة لم يكن ينطوى عليها فى الاصل .

فنحن نعلم ان اشهر الخرافات والحكايات الذائعة فى الاوساط الشعبية انما صدرت عن ينابيع دينية قديمة جدا . وهذا يعنى أنها انتشار حكايات أسطورية أو تقاليد شبه تاريخية كانت فى الماضى وقفا على ارستقراطية دينية ، ثم ذاعت فى الناس فاصبحت شعبية .

فمن الاعلى اذن صدرت هذه الخرافات الى الشعوب ، لان من الوهم الكبير الاعتقاد بان التخيل العفوى للشعب يجعله يعنى بذاته ، ويهتم بما يتميز به عن الشعوب الاخرى . وانما ترمى الوظيفة الطبيعية لهذا التخيل الى انتزاع الشعب من حياته اليومية التافهة ، وحمله الى عالم آخر غير العالم الذى يعيش فيه ، ذلك انه لا يعجب عادة الا من قصص يحدثه عن عالم يجهنه ، او يعرفه قليلا .

فالادب الشعبى حسب رأيه (1) هو الذى ينقل الشعب الى أوساط ارستقراطية أو الى أحلام .

والحق ان القصص الشعبى الرائع ليس الا عمل الفنان ايا كان . والموهبة الفنية ليست قاصرة على صنف معين من الناس أو على الطبقات الارستقراطية. كما ان ينابيع الفن ليست محدودة فى الزمان والمكان ... فقد تكون ظاهرة شعبية بسيطة ، ولكنها مصدر ايحاء فنى ، وقد تكون ظاهرة ارستقراطية

(1) انظر : الفن الحياة الاجتماعية لشارل لالو : 145

براقة ولكنها لا توحى بشىء ، لان الفن ينبع من اعماق النفس والحياة ثم ينعكس على الشعور .

وقد قيل : الاثر الفنى لا يترك أثره فى النفس ، ولا بقاءه على الزمن ما لم تلتق فيه ومضة الفكر بخفقة القلب ، ولفتة الذهن بحركة الشعور ، ومنطق العقل بقدرة الوجدان ، ولا عبرة بمصدره شعبيا كان أم ارستقراطيا

وموقف الجمهور من هذا القصص المخالف فى أكثر الاحيان للنواميس الطبيعية والخالى من التحليل النفسى والتعليل المنطقى أشبه بحال المنوم الذى تقف فيه حركة العقل لتملى عليه المواقف والصور .

لا نالجمهور كالذوات التى لا تعرف التعقل ولا التأمل فى حدة التخيل وقابليتها للتأثير الشديد ؛ وغير المعقول هو الاشد فعلا فى نفوسهم .

ومن هنا كانت الجوانب الغريبة فى هذا القصص أكبر مؤثر فيها ولا سيما فى القصص الدينى الذى لم يقتصر فيه الناس على ما أوردته الكتب السماوية ولكنهم بزيادات الرواة جعلوا منه على مر الدهور مرتعا لتصوراتهم ومسرحا لتخيلاتهم ومعتقداتهم . ومن ذلك : أن لويس الحادى عشر كان ينفق جل ماله أملا فى ان ينال - بما يقدم - حماية العذراء وابرار الفردوس معتقدا فيما يرويه مؤرخ له أنهم يتدخلون فى أعمال الانسان دائما ، وانهم القادرون وحدهم على ضمان الانتصارات ، ويدعم له هذه المعتقدات بأساطير شعبية يقصها عليه فتثير دهشته ، وتنال اعجابه .

وظاهرة المغالاة فى هذا اللون من القصص المستوحى من الدين ، والذى جرت أحداثه فى عصور غابرة تبدو جلية فى عرض ما هو الى الخيال والتهويمات أقرب منه الى الحقيقة والواقع .

ومن هذا اللون ما يرويه الكسائى : أن يوسف عليه السلام قال لاخوته لما أتوه وهم لا يعرفونه : « يا أولاد يعقوب ! ان من العجب أن يأكل الذئب أخاكم ، وفيكم من يصيح بالاسد فيخر ميتا ، وفيكم من يأخذ برجل الذئب فيشقه نصفين ، وفيكم من اذا صاح وضعت الحامل ما فى بطنها . وفيكم من يقطع الشجرة من أصلها ، وفيكم من يعدو مع الفرس فيسبقها ! قالوا : نعم !

أيها العزيز . وفينا من يفعل أكثر من ذلك ، لكن اذا حم القضاء ، عمى البصر وضعفت القوة (2) .

ومما يروى عن معجزات عيسى عليه السلام : أنه أحيى صديقا له اسمه العازر بعد موته بثلاثة أيام ، فأخرجه من قبره ، وعاش وتزوج وانجب .

ومثله ما ترويه بعض الاساطير الشعبية أن النمرود مات ببعوضة صعدت الى دماغه ، فاتخذ عصا له ، وأمر أعوانه أن يضربوا رأسه لكى تسكن البعوضة التى تؤلمه بحركتها . حتى ضربه احد وزرائه يوما بهراوة فشق راسه نصفين وخرجت البعوضة فى حجم فرخ الحمام وهى تقول : لا اله الا الله ، ابراهيم خليل الله (3) .

وهكذا نجد فى كثير من القصص الشعبى ان الوهمى فيه هو السائد على الحقيقى لانه كثيرا ما يستمد من خبايا الفكر والعاطفة ويصدر عن أحلام اليقظة ، وعن آمال عز تحقيقها ، وعن رغبات مكبوتة فى النفوس ، تدفع الى الفرار من الواقع المر ، الى عالم لا وجود له فى واقع حياتنا يجد فيه المحرومون والبائسون متنفسا .

يقول ڤيون Guyan : « اننا لم نخلق لنحبس فى ذواتنا ، لان دموعنا أكثر مما تحتاج اليه آلامنا ، وأفراحنا أعظم مما تقتضيه سعادتنا ، وأخيلتنا أخصب مما يقيدنا به واقعنا »

وهكذا فان هذا القصص الشعبى ــ على ما فيه أحيانا من تجاوز للواقع ، أو تحد للمنطق ــ ظل وسيبقى على مدى الايام منبعا ثرا يستوحى منه علماء النفس والاجتماع ما يعينهم على دراسة الشعوب وتحليل نفسياتهم ، كما يستوحى منه الكتاب والشعراء ما يذكى قريحتهم ، ويمدهم بزاد لا يستهان به من المعرفة ، وقد يمثل لهم صورة عصر وحياة شعب .

التهامى نقرة

---

(2) محمد الكسائى : قصص الانبياء : 170 .
(3) موسى سليمان : الأدب القصصى عند العرب : 142 .

مسرح الأشباح

قصة : عبد المجيد بنجدير

كانت القدر موضوعة على ثلاثة احجار ، والدخان الكثيف يتصاعد حولها فيحجبها احيانا ويبديها احيانا وكان الاطفال الثلاثة يجلسون القرفصاء ، ويتجهون بانظارهم الى القدر ، اما الأم فكانت تختفي في البيت وتظهر فتكشف النار المنبعثة في ظلام الليل عن هذه الصورة التي اغفلها الرسامون رغم حرص النار على ابرازها واعطائها ملامحها وظلالها ، وفي هذا الصمت كانت الجدة تلهى الاطفال المنتظرين القدر فتقص عليهم (قصة الاشباح الثلاثة) لم تكن الجدة التي أتحدث عنها فصيحة اللسان واضحة البيان ولكنها على الرغم من ذلك كانت تتحدث أحاديث لا توصف بالعذوبة وليس لها جاذبية وانما هي أحاديث غير مألوفة لذلك كان الصبيان يستمعون اليها بكثير من الانتباه تقول الجدة (التي كانت النار تكشف عن تجاعيد وجهها أحيانا) حدثتني جدتي بانه يقيم بقصر الجم ثلاثة اشباح يختفون بالنهار ويظهرون بالليل . فتخيل أحد هؤلاء الاطفال المنتظرين الاشباح الثلاثة ، ولفه صمت عميق صمت لو لم يفق منه لما كان لكم ان تعرفوا هذه الاشباح ، ولقد أخفى شرود هذا الطفل وانتقال رؤيته من الحاضر المشاهد الى التخيل أخفى عنه ما كانت تتحدث به جدته عن مكر هذه الاشباح وبطشها وقالت الجدة كلمة لم يستمع اليها الطفل الشارد ، لم يدخل القصر طارق بالليل دون ان يضيع فيه . دخول بلا عودة بلا رجوع ، وأخذ الشعور بالخوف يلف الاطفال ، والخوف والجوع القدر أمامهم والاشباح تقيم داخل نفوسهم ، فلا القدر أطعمتهم ولا الاشباح انفصلت عنهم الا الطفل الذى لفه ذهول بعيد ، بقى الطفل ينظر الى اللهب الراقص تحت القدر وهو لا ينظر ويفكر وهو لا يفكر انما هو أمام مشهد الاشباح الثلاثة واقف لا يتحرك يستنطقها فلا تتكلم ومضت تلك الليلة بسلام ونسى الاطفال مع الصباح ما كانت جدتهم حدثتهم به بالليل وجاءت الليلة الثانية وانتظرها الصبى الذاهل

انه أصبح يحس بأن له علاقة مع الليل . الليل هذه المدينة العظيمة التى يسكنها الاشباح الثلاثة ولو لم تقل الجدة بأن الاشباح يسكنون القصر لاصبح هذا الطفل يراها فى كل مكان وحتى لو لم تكن لاوجدها هذا الطفل الباحث عن عالم غير مشاهد تسلل الطفل من فراشه عندما تأكد بأن الليل نام تسلل الى القصر فكان الطفل لاول شبح يشهده القصر وانتصب الطفل فى فناء القصر يبحث عن الاشباح الثلاثة . جدته لم تصف مكان الاشباح ولم تحدده فى أى مكان يا ترى تنتصب هذه الاشباح ورفت أجنحة سود من الظلام لم ير الطفل الاجنحة ولكنه لاحظ الحركة فعرف مكان الاشباح الثلاثة وتسمر فى مكانه وأخذ يستكشف بعينيه الصغيرتين هذه الحلقة الجديدة وخيل إليه أنه يشاهد هيكل الشيخ الاول انه هيكل عظمى يشبه هيكل الاموات غير ان عظامه كانت تضيء وتنطفيء مشهد مريع ونظر الطفل الى يمين المشهد والى يساره يبحث عن الشبحين الآخرين فرآهما وأحب الطفل أن يستمع الى هذه الاشباح تتحدث اليه لانه كان قبل ذلك يجهل حديث الاشباح .

فقال الشبح الاول : ما زال أهل هذه المدينة يجهلون مكان الكنوز العظيمة التى خلفها لهم آباؤهم :

فقال الشبح الثانى : وهم لا يبحثون عنها .

الشبح الاول : وكيف يبحثون عن كنوز لا يعرفونها ؟

الشبح الثانى : البحث والمعرفة أمران لا يجتمعان فالانسان يبحث ليعرف فاذا عرف لا يبحث .

الشبح الثالث : تتحدثون بكل طلاقة الا تخافون ؟

الشبح الاول : مم نخاف أيها الجبان ؟

الشبح الثانى : ألا ترى أن الحديث عن الكنوز يعرضها للتلف . والضياع ؟

الشبح الثالث : وماذا يخيفك ؟ هل يخيفك ضياعها ؟

الشبح الثانى : ومتى استفدت من هذه الكنوز ؟

لقد استمع الطفل الى الاشباح تتحدث عن الكنوز وعن الخوف وعن ضياع الكنوز وعاد الى مخدعه فى الكوخ الصغير ، ذلك الكوخ الذى كانت تحرسه

كلبة جائعة تعوى عواء الذئاب لانها لا تملك القدرة على النبـاح فما ان احست الكلبة بالطفل يعود الى البيت حتى اخذت ترحب به ، كلبة جائعة ترحب وتظهر الفرح بعودة سيدها وكم من جائع له طبيعة هذه الكلبة وأريحيتها ؟ فالانسان ليس أقل من الكلاب شأنا ، الانسان له مزاياه يثور عندما ما لا يحب ان يثور ويرضى عندما يجب ان يثور ، الانسان غير صادق مع غريزته وهو فى ذلك على خلاف الحيوان الخوف يكيف افعاله ويغطى وجهه فلا تراه وان دققت النظر .

واخذ الطفل ينظر الى هذ هالكلبة وهو يود ان يحدثها عن هذه الاشباح الا انه أحس بضيق شديد عندما عرف أن الكلبة لا تعى حديثه ولا تهمه وعاد الى نفسه يحدثها وفى النفس وض عن الآخرين .

وعاد الصباح من جديد ليمحو الاشباح ويطوى حديثها وأخذ الطفل يفكر هـل يقص على اقرانه ما شاهده بالليل ؟

يهم ولا يفعل وله أن يتردد فهو يخاف أن يضحك منه اقرانه وان ينزلـوه منزلة المجنون خير له ان يصمت وحتى جدته التى حدثته عن الاشباح الثلاثة أخفى عنها الامر ولم يجد من نفسه باعثا على مكاشفتها بالامر ، خوفـا من ان تكـذبه .

قد نكون جدته عن الاشباح الثلاثة حديث من لا يعتقـد بوجـود الاشبـاح والكنز اخذ الكنز يشغل بال الطفل الصغير لو عثر يوما على هذا الكنز ؟

عبد المجيد بن جدو

زمني يتكلم لغة واحدة

شعر محمد علي الرباوي
وجده

من نافذة الاحلام أطل عليها وجها تعلوه
مئذنة تتدلى منها أصوات الناقوس ،
أحدق فى عينيها زمنا .. أقرأ كتب الدهشة
بينهما ؛ تتحول بئرا ، أتحول حوتا يحمل
فى الصدر سلاسل حب وجداول ظل مفتول
الجبهة والساعد . تأتى الصحراء تغطى
البئر ، تموت الحيتان وخوفى يتحطم
عند سواحل ذاتى ، آه يا منية نفسى ، لو
تغسل وجهى الأمطار لكى أتحول إما
مئذنة أو ناقوسا ...

آه يا قدرى ، علمنى
أنى أختار وأنى أشنق
زمنى لا يحكم إلا بالشنق
زمنى لا يتكلم إلا لغة واحدة :

الشنق الشنق الشنق

محمد علي الرباوي
(وجده ـ المغرب)

القصيدة النثر ليست شعرا و«قف!»

بقلم: الصادق شرف

يعتبر القابسي من رواد القصيدة النثر فى تونس بعد أن تمكن من البحر وسجنه فى كأس ، وهذه العملية هى رغبة منه فى سلب البحر حريته ؟ أم أنها رمز لتوق الانسان للسيطرة العقلية والعاطفية على كبريات هذا الوجود وقواه الطبيعية لتسخيرها لفائدته واستعمالها فى جميع مجالات كيانه ؟ بما فيها الكيان الفنى الذى أراد القابسى ان يجلب - ما لم يتسن لغيره جلبه - لداخل ذلك الكيان من عوالم قد تكون محيطة به وقد تكون بعيدة عنه ، وبقدر بعدها عنه تكون المعاناة فى طريق الوصول الى الغاية الفنية الابداعية وايصال الغير اليها ..

هذا ما لمسته واضحا جليا فى كتابة القابسى من خلال مجموعته الاولى « البحر فى كأس » لمست ان وصولى الى كيان الغاية الفنية التى اراد هو ايصالى اليها - كقارىء - كان . ولكن بقدر وصوله هو نفسه الى تلك الغاية فى معاناته . وبالصعوبة التى وصل هو بها وصلت أنا اليها بمضمون تلك الصعوبة لا بشكلها لان الشكل الذى مارس به القابسى مسيرته الفنية يختلف عن كل الاشكال الشعرية فى تونس فليس هو فى عير « فى غير العمودى والحر » ولا هو فى نفير القصيد المضاد لمحمد مصمولى ولا هو فى صيد الشعر الحر . ولا هو فى جوف فرا الشعر العربى الاصيل . فهو شعر عربى الرؤى . قابسى الايقاع . جان بارسى الصدى . وفى ذلك بحث عن الجديد وتجديد لأنفاس البحث عن المسار المغاير .

إن محك الدرس ليدعونا أكثر من أى وقت مضى الى أن نضع عليه ممارسة (الناثرين الشعراء) أو كما يحلو لبعضهم ان يسمى نفسه (النا شعراء) .

ولربما يكون الفحص الشامل لمعاصم تلك الممارسة أوكد ـ لتناولها فى شمول ـ من تناول أى عمل ما لأحد روادها فى تونس ، ندعه الآن لما هو أدهى لنعود اليه حتما .. والعود ـ لنقول كلمتنا فيه ـ أحمد .

فلنشرع بادىء ذى بدء فى جس نبض معصم ما يسمونه : (القصيد المنثور) أو (قصيدة النثر) .

إن هذه التسمية فى حد ذاتها لها بعدان اثنان :

① **البعد التراثى :** وهو القصيد ومنشأ هذه الكلمة كان فى ارادة « القصد » من كتابة ذات سمات معينة يرمى الكاتب فيها الى مقاصد منها أن يقال :« أقصد الشاعر » أى واصل عمل القصائد صدورا من فعل قصده توجه اليه .. وقصد فى مشيته سار مستقيما مستويا..إما في بنيته الجسدية أو في بنيته الاجتماعية أو فى المسلك الى الهدف وبهذا المفهوم (فالنا شعراء) تناقضوا مع ذلك قولا وفعلا . نثرا وشعرا .

② **البعد المستحدث :** وهو بناء الضد بضده.وذلك ما حدث فيهذا التركيب (القصيد المنثور) ذى البعد المستحدث لا على مستوى عنصرى البناء بل على مستوى ماهية البناء نفسه إذ (القصيد) هو نظام معين و (المنثور) تعيين واضح لعدم النظام بمفهوم (البعثرة) وبذلك يصير مفهوم « القصيد المنثور » يعنى « النظام المبعثر » وما بعثرة النظام نفسها الا الوجه الآخر للنظام المنظم . ومن هنا يكون القصيد المنثور حالة فنية جائزة كحالة (التلاشى البنيوى فى الطبيعة) كجسم وردة بين يدى عاشق يريد رش طريق المعشوق بأوراق الورد فيعمد الى تفكيك تاج الوردة وبعثرة أوراقها هنا وهناك وفى ذلك منظر بديع لضد الشىء المعتاد .. وقد لا يقوم فاعل ما بتعمد ذلك الفعل ومع ذلك يحدث تفكك تاج الوردة على طاولة الصالون حول أصيص الزهور بحكم طبيعى نافذ المفعول حين يدخل عمر الورد حيز التلاشى وليس فى ذلك (عدم) ولكنه (تحول) وهو ما يسميه أدباء النقد (التجاوز) وهذا الاصطلاح نفسه لى فيه قولة تتمثل فى اعتراضى على من يستعمل كلمة (تجاوز) استعمالا مجانيا عماده أن لا عماد له .

التجاوز المجانى :

هو أن يدعى أى كاتب أنه تجاوز كتابات غيره بما ادعى فيه التجاوز لنفسه . بحيث يصير ما كتب غيره هو الاثر الذى وقع تجاوزه منه سواء كان بعد استيعابه او قبله دون وجود اثر للكاتب نفسه يقوم بتجاوزه هو

نفسه وبذلك يصبح التجاوز لا أساس له فى عمل المتجاوز . واذا كان ذلك بناء جديدا لجدار آخر فى مدينة الخلق الفنى فكيف يقام ذلك الجدار على أساس هو لغير البانى ؟ هذا اذا قام باستيعاب ما لغيره فما بالك بمن لم يقم لا بذلك الاستيعاب ولا بوضع أساس جديد ذاتى ؟ فهل سيرتفع فى تلك الحالة هذا الجدار ؟ وهل سيتم بناء مدينة الخلق الفنى اذا كنت تبنى وغيرك يهدم ؟

وهذا ما يتقارب مع ايديولوجية التقويض لكل القيم ومعتنقو هذا المذهب هم هؤلاء الذين تزخر بهم ساحاتنا الثقافية ادعاء ودعوة فالتقويض عندهم بناء والاغلاط فى الكتابة لديهم هو التجديد بعينه . وأظافرهم والطامة الكبرى على رأس من تفطن لاغلاطهم حتى ولو لم يصلحها فانه يصير فى نظرهم وفى أبواق تجمعاتهم الضحلة والحمد لله ! يصير الرجعى الذى فاته الرتل وتخلف في محطة ما قبل التاريخ . وبذلك فاما أن نجاريهم فى أخطائهم على انها تجديد فى التركيب والتعبير والافكار والكتابة والا فنحن بضائع نسيها أصحابها على رصيف الماضى وسافروا بدون رجعة فسوف يأتى قطاع طريق ما بعد التاريخ وينهبون منا ما شاؤوا وقد ينهبوننا نحن بالذات والصفات والتعابير والكلمات ومن يصرخ منا فى الملأ أدركونى « القطاع ! القطاع ! » فانه سيكون فى نظر هؤلاء « جبانا واحتماليا » ومن احتمى بغير ذراعيه ذل . ومن انتمى لغير قومه ولو كانوا ضعفاء فهو أضعفهم . وهو مدعاة ضعفهم .

عرق المعاناة :

لا يمكن لاية كتابة أن تنهض بنفسها ما دام فيها من ليس منها . وما دامت لا تقوم بكشف ممارساتهم فيها امام الشمس . ولا يمكن لها أن تجفف الحياة فى شرايين التكالب ما لم تفتح لأشعة الشمس فيها بابا ـ والبيت الذى تدخله أشعة الشمس لا يدخله الطبيب كما يقال ـ .

فاذا لم تفسح المجال لتلك الاشعة الناقدة لتتوغل فى عمق منعرجاتها . فالحرارة لن تستطيع أن تصل الى آباط الجسم تجوس خلال شعر الأخافى واصلة الى ما التصق واختفى وراء الشعث المغبر من كثرة ما فى طريق المتناقضات من غبار ولغزارة ما فى تجاعيد ذلك الجسد من عرق الارهاق الذى قد يلهى ماسحه عن ذرات مهمشة حطتها السوافى على اهدابه وازدلفت لتدخل العين ولكن اليد الماسحة رغم عرق المعاناة الذى يضمخها ، هى وحدها التى ستتصل من خلال قطرات العرق لتحمى العين من هوامش السوافى فاذا الماسح والممسوح كلاهما فى خدمة العين فاولا الهامشة ما امتدت يد الماسح ولما

امتسح مع تلك الهامشة ما ران من قبل على العين من غبار ، صارت بعد المسح اكثر واعمق رؤية من ذى قبل .

بذلك تستطيع تلك العين أن تبرز ماهيات ونوعيات ما يمارس اليوم باسم التجريد أو التجريب من ضروب عديدة من (الفن) الهارب منا ومن جذوره معا ، وليس من الضرورى ان تكون جذور الفن المراد ممارسته ضاربة فى القدم بل من الممكن ان يقوم الممارس نفسه **بوضع جذور لها** (*) . أما ان يجترح (على هامش الأنباء) ممارسة يدعى انها فن تجديدى داخل الجذور لا يستطيع ان يتدخل فى **شؤون جذوره الايقاعية** حتى هو نفسه ـ وقد يعترف بذلك العجز اذا خلا الى نفسه ـ ولكنه اذا خلا اليه غيره حاول جهده ان يوهمه بأن ما يمارسه هو الخلق الفنى والعمل التجاوزى . فذلك لا يعدو أن يكون ادعاء لفن جف فى شرايينه نسغ الأصالة .. وشاح على سطح بشرته عرق المعاناة .

ومثل هذا الادعاء لا يمكن ان يذكرنا بغير صورة كربونية لذلك الرسام الذى قام بجمع « شعب من الحلزون » واغرقه فى أصباغ مختلفة الالوان وترك له المجال رحبا ليسرح كما اتفق له السروح على وجه لوحة من قماش أبيض مشدود الى اطار يتحرك فيه ذلك (الشعب الحلزونى) ، وما هى الا هنيهة من الزمن المهمش حتى برزت للوجود **لوحة زيتية تجريدية ضاربة فى أعماق الابداع الفنى الرائع الموحى الشفاف ذى الايقاعات الداخلية داخل عالم زاخر بالرؤى المتداخلة الخطوط ، المتعامدة الاشكال ، الأفقية الالوان** ـ ولتفهم يا فاهم كما اتفق لك الفهم الذى هو الوجه الآخر لعدم التفاهم ـ والغريب أن ذلك الرسام لا يخجل من أن يدعى أن اللوحة التى رسمها (الشعب الحلزونى) هى من **ابداعاته** ومن وضع **ريشته الخلاقة** .

التدخل فى شؤون « الايقاع الداخلى » :

إن ممارسة هذا الفنان وادعاءاته لأقرب ما تكون الى ممارسة وادعاءات هؤلاء الذين يكتبون ما يتوهمونه ، او ما يعتقدونه ، أو ما يخدعون به القارىء العادى وحتى بعض المثقفين من انه (الشعر) ، والحقيقة انه لا يعدو ان يكون نوعا من النثر لا يخلص ولو لأبسط قواعد الشعر العربى ، فما بالك باخلاصه لكل ما للشعر من قوانين وحتميات وضوابط ومعطيات ومنطلقات ؟ فهل يكفى أن يكتب أحدهم نثرا يوزعه على الورق كلمات وجمل متعامدة ليدعى

(*) ولا أدل على ذلك من وجود ايقاعات لا تدخل فى ما أحصاه الخليل فى علم العروض (محمد العياشى كتاب : نظرية إيقاع الشعر العربى ص 308) .

انه يكتب شعرا ؟ حتى ولو كان ما يكتبه **حلو المذاق ، أنيق التعبير** ، مشحون المضامين ، وقد يكون أروع من الشعر الموقع ، إلا أنه ينقصه الايقاع **الخارجي** فيدعي مجترحه : ان **ايقاعه داخلي** ، وهو لا يعنى من كلمة داخلي غير **الهروب** الى الداخل من وجه القارىء الذى يواجهه فى الخارج ، **وينتظر ايقاعا خارجيا** يتفاعل معه على أرضية متعارف عليها تبسطها لنا ماهية اللغة العربية التى تعتمد فى ايقاعاتها على الحركة والسكون اللذين بدونهما لا يمكن ان ندلل على حياة اى كائن حى .

فالانسان يتحرك بمقدار ويسكن بمقدار فاذا تجاوزت الحركة الحد فهى تنقلب الى الضد ؟ واذا تجاوز السكون الحد فهو لا ينقلب الى الضد ؟ ولا يمكن ان يكون هناك توازن فى حياة الانسان اذا حاول تحطيم هذه القاعدة البديهية والحتمية التى يقرها العلم اليوم أكثر من ذى قبل ، اذ العلم اليوم هو روح عصرنا ، وروح العلم هى الحسابيات **والمقادير المعينة** التى دخلت كل ميادين المعرفة بلا استثناء ، وهذا ما اصبح يؤمن به ابناء العصر كلهم ولا استثنى منهم غير (**الناشعراء**) ، فعوض ان يتوغلوا فى عوالم الشعر متسمين بروح العصر ليعلمنوه ويضبطوا تحركاته وسكناته ، مالوا الى تحطيم مقوماته عوض تطويرها جريا وراء السهولة الرخيصة(*). ولقائل ان يقول لى : ما ذلك الا استجابة للقلق الوجودى الذى يعيشه العصر ، عصر السرعة حتى فى الموت ، وهذا صحيح من وجهة نظر من ليس له وقت يضيعه فى رصد تحركات وسكنات الحروف فى فلك الشعر ومداراته كما يفعل الفلكى فى مرصد الكواكب والنجوم بصبر يراقبها ، ويعمل على تطوير عدسات مراصده الجوية ليكتشف مجاهل هذا الكون واسرار فضائه الفسيح ، ولا افسح منه الا فضاء الشعر كفن له هو أيضا فضاؤه ، وفى فضائه نجوم وكواكب تتحرك بمقدار وتسكن بمقدار ، وتجرى لمستقر لها ذلك تقدير ماهية اللغة العربية التى تفاهم معها الشاعر العربى القديم وتفهمها ، وتفاعل معها فكان مفعولا لها وفاعلا فيها ، مما مكنه من أن يكتب بها الشعر دون ان يلجأ الى افراغها من محتواها ، أو افراغها فى أوعية بناها لها من قبل لافراغها فيها ، فكان يقول الشعر على السليقة .

وجاء من يتطفل على الشعر اليوم واخذ يسلقه بالسنة حداد لا تراعى ماهية اللغة التى كتب العربى على ضوئها شعره الذى

(*) شعور الاكتفاء : وهو نزعة نفسية تقعد بصاحبها عن السعى والطلب متى استغنى فيميل الى الكسل والفراغ . (نظرية ايقاع الشعر العربى ص 138) .

منه استقى العروضيون فنيات الايقاع الخارجي الذى يحسه حتى السامع البسيط فيرقص له ، فما بالك بمن يحسن القراءة ؟ وما بالك بمن يتذوق الشعر ذلك المثقف الواعي ؟ الذى ما فتئت تحيره ظاهرة غريبة ما زال يحاول أن يكتشف لها تفسيرا وهى ان يحاول بعضهم إلباس كتاباته النثرية حلة القداسة الشعرية التى ما كان لها ان تتصف بقداسة ذلك الابهار وتلك القشابة لو ما نسجها الشعراء وعلى مر العصور فوق نول **الايقاعات الخارجية** الملموسة التى تحتمها اللغة العربية على من يكتب بها شعرا ويحس بها ويتذوقها ويهتز لوقوعها من نفسه كل قارىء مهما كان بسيطا ، بينما لا يتحرك ــ الا من يتظاهر بالتحرك ــ **للايقاع الداخلي** الذى يدعى (الناشعراء) أنه كامن فيما يكتبونه من نثر كمون النار فى الرماد ، وما كل رماد تكمن النار فيه ، ولكن كل نار هى مكمن للرماد ، وبالقياس على هذا لا يكون الشعر مهما انساق فى النثرية إلا مكمنا للايقاع . بينما لا يكون النثر مهما حاول التقرب من الشعر الا خلوا من الايقاع ، حتى اذا وجد فيه انقلب شعرا ، ولا يمكن ان يكون وجود ذلك الايقاع فيه الا وجودا **خارجيا ومحسوسا** ، لا أن يدعى بعضهم ان ما يكتبه من نثر هو شعر حتى اذا قرأته لم تجد فيه ايقاعا فيبادرك صاحبه قائلا : (الايقاع داخلي يا أخي !!) سبحان الله !!

فهلا يمن علينا هؤلاء (الناشعراء) بالتخلي عن شنشنة (الايقاع الداخلي) ؟ فالواقع يدعوهم اليوم للخروج من داخل تلك الايقاعات الداخلية الى خارج ملموس وليد للواقع المحسوس . ذلك الواقع الذى لا يمكن له ان يتعامل مع ما يكتب هؤلاء ان لم يخرجوا بكتاباتهم من وهم (الايقاع الداخلي) الذى يشرنقون فيه نفوسهم . فعلام هذه السجون فى داخل ايقاع داخلي غامض ؟ بينما هم يثورون على ايقاع خارجي ملموس كعلم حى لا بد من تطويره عوض العمل على تحطيمه وتعويضه بايقاع لا وجود له . أهى مؤامرة مبيتة ضد الشعر ؟ أم كمين منصوب لمن أراد أن يصل الى حقيقة ما يمارس هؤلاء (الناشعراء) متخفين وراء كلمة ايقاع داخلي ؟ حتى اذا مد الباحث أصابع التنقيب عن الايقاع الداخلي صاح فى وجهه هؤلاء ... كما يفعل سياسى فى وجه من يحتج عليه من الخارج ليفضح ممارساته المشبوهة ضد شعبه فى الداخل ، يصيح ذلك السياسى فى وجه الخارج : آه .. واه .. هذا تدخل مفضوح فى شؤون البلاد الداخلية ، تحرمه القوانين الدولية .. ولكن ليعلم هؤلاء أن التدخل فى بلاد ايقاعاتهم الداخلية لفضح ممارساتهم ضد هذا الفن لا تحرمه القوانين الدولية لا الخارجية منها ولا الداخلية التى يحتمون بها ، فاما ان يخرجوا لنا من شرنقة هذه (الداخلية) ، واما اخرجناهم منها عراة من كل ايقاع . **يدعونه** ، أو **يتوهمونه** ، أو **يوهمونهم به مجاملة** أو **جهلا** !

فاذا كان هناك ايقاع داخلي فعلا فلماذا لا يسمحون لنا بالدخول الى رحاب ذلك الايقاع ؟ أو لماذا لا يسمحون لأنفسهم باخراج رحاب داخلهم الايقاعي لنا ؟ حتى نتفق معهم ولو على أبسط قواعد ممارساتهم . وعلام يتكالب هؤلاء على ان نسميهم شعراء وان نسمي نثرهم شعرا ؟ وهم ما زالوا نثارين متناثرين داخل ايقاعاتهم الداخلية .. فهل سيقدرون ذات يوم على إخارج ذلك الايقاع الداخلي حيا الى الخارج ؟ أم ان فاقد الشيء لا يعطيكه ؟.

ميكانيك الشعر :

هل سمعت رفيقي القارىء ولو مرة واحدة في حياتك بشاعر كتب قصيدا ثم جاء بعد ذلك مدعيا انه كتب (نثرا)؟فلماذا يدعي الناثر اذن عندما يكتب **لوحة**، أو **خاطرة** ، أو **نثرية ما** .. لماذا يدعي بعد ذلك انه كتب (شعرا) ؟ ألا يعلم انه بذلك الادعاء يكون قد حكم على كتاباته النثرية **بالمسخ** ؟ **بالاستلاب المقيت** ؟ **بفقدان الشخصية** ؟ **بانتحال جنسية هي ليست لكتاباته** ؟ كذلك (الغراب الذي أراد أن يقلد مشية الحمام فأضاع مشيته ..) أو كالغراب الآخر الذي لبس ريش طاووس جريا وراء الفخامة وبهرج الرياش لينتحل شخصية طيور ما كان هو منها ، وما كانت هي منه .. فما كان منها الا ان رفضته كنتيجة حتمية.ولما عاد الى أفراد سربه ما كان منهم الا ان هجموا عليه ينتفون زيه المنتحل ، حتى خلصوه من **عقدة انتحال الشخصية** . ويا ليتهم وقفوا به عند ذلك الحد ، ولكنهم واصلوا حتى وصلوا الى نتف ريشه الاصلي ، حتى عروه تماما جزاء وفاقا لمن أراد أن **يشوه الحقائق** ، حتى ولو كانت تلك **الحقائق سوداء** كالغربان ، فهي أشرف من زيف مزركش بجميل **الالوان** وخالب الاصباغ ..

وهكذا عرى افراد السرب ذلك الغراب المتطوس ، فاذا هو مجرد حتى من الريش الاسود الذي به ينتسب الى جنسه ، فاذا هو صنف من الطيور الهوامش ، واحد في نوعه . وسيظل هكذا مهمشا في انتظار زمن رجوع الريش له ، ليزخرف من جديد زغبا ينمو وينضج ، ولا يمكن ان يبزغ الا ريشا ليس بامكانه ان يعيده لغير سواد غربانه ، اذا تفضلوا عليه بالعفو لارجاعه الى حظيرتهم ، ولربما لا يقبلونه رغم سواده ، لان جماعة الغربان تؤمن هي ايضا مثلنا نحن البشر بقولنا : (من باعك بالفول بعه بالقشور ..) ولقد كثر اليوم من **يقشر** وجهه ويقول : أنا أبيض .. ومن **يلبس** قناعا ويقول : أنا ممثل . ومن **يسود** وجهه ويقول أنا حداد أو أنا فحام . ومن **يشحم** لباسه ، **ويزيت** ثيابه ، **ويوسخ** يديه ، ويقول : أنا ميكانيكي . ويبدو أن هذه العاهة التي تفشت اليوم في ميدان ميكانيك السيارات،يظهر انها عاهة معدية ذلك لأننا نشاهدها تتجاوز حدودها ، لتستشري في أوساط **ميكانيك الشعر** لما لاحظنا من تكاثر من يسود بقلمه وجه الورق ويصرخ متوجعا :

(أنــا شــا .. عــر ...) !

وقد لا يسود بعض المصابين بداء ميكانيك الشعر وجـه الـورق ، ولكن يزينه بما يحسب انه الشعر حتى اذا قرأت ولذ لك ان تتذوق معانيه بامتاع ، حرمك غياب الايقاع الشعرى ، وضياع موسيقاه تلك المتعة الفنية الرائعة . وتحاول ان توجد لذلك النثر ايقاعا كجواز للعبـور به الى مـدينة الشعـر فتفشل ، فما يكون منك عندها الا ان تضم ذلك الى بيت مال (الناشعراء) . ولا يمكن لك أن تسميه شعرا .. و « قف » ! بل لا بد أن تكمل النقص كأن تقول : هذا شعر منثور ! أو (نثر شعرى) ! أو باختزال صحافى (النشعر) ! و (الناشعراء) !

وكثيرا ما يمارس بعض الشعراء الشبان كتـابة نثـرية وبكـل تـواضع يسمونها (كتابة) أو (لوحة) أو (تعبيرا) أو غيـر ذلـك الا ان يسمـوه (شعـرا) لانهم يعرفون أن الشعر الحقيقى هو غير ذلك . ولا يسمى نثـره شعرا الا من كان لا يحسن كتابة غير النثر . واليك نموذجـا من كتـابة هى أقرب ما تكون من الشعر ومع ذلك لا يمكن أن نسميها شعـرا وأن نـوهم القراء بانها (شعر) :

وجه أمتى على ساحل التاريخ أرخبيل ..
مشجرا ما زال بالرغوة الخضراء ..
وبركان الميلاد ما زال واعدا بعطاءات أخرى ..
هى لنا الخليج ، ونحن المحيط لها ..
وها وجه أمتى ينضح وهاجا بالعرق المقدس .

ولعل البعض يعتقد أنى ضد ممارسة تلك الكتابة التى يقبل عليها كثير من المستخفين بالشعر كفن له قواعده ومعاناته لا يتحلل ولم يتحلل منها كأى فن وكأى فنان حقيقى الا هؤلاء الذين أخذوا يحبـرون حزمـا مـن الاوراق يقذفون بها شباك مرمى الشعر حتى ليكادوا ان يمزقوا تلك الشباك (بعيد الشر) . وما كانت لتهتز شباك مرمى الشعر لقذفاتهم لولا غيـاب النـاقد الاصيل : حارس المرمى ، ولربما كان الحارس حاضرا ولكنه لم يستطع حماية الشباك إما لضعفه فى فنيات تلقى الكرات المقذوفة .. أو لضعف فى الرؤية مما جعله لا يميز بين الكرة وحذاء اللاعب الذى تنصل من قدمه وارتشق فى خلية من خلايا الشبكة ، وبقى معلقا فى أرجوحة التدلى (كشك من عصبان جاف) يتأرجح فى احدى شرفات شقة فى عمارة الكتابة حتى اذا ما مر احد السواح وشاهد ذلك العنقود ظن ان نوعا من التين أو الكمثرى قد نضج فى غير فصله ، وخارج حقل تواجده ، فسحب من عنقه آلة التصوير وأخذ يلتقط منظرا كركاتوريا تذكاريا لتلك المعلقات (النشعرية) .

الوردية : 29 / 11 / 1978

مسافة عمر من الحزن

شعر : عبد الحميد مواعدة

الاهتداء : الى روح الشهيد **كمال جنبلاط**

①

... وسافرت الشمس في مدها للأصيل
وكان المساء يهددنا بالرحيل
يصفر مثل الجراحات قلبي
وكانت يدينا تداعب رمل الجنوب
« ظللنا مع الرمل .. والحجر المتجذر في الرمل »
ورمل الجنوب يهيج كما الارخبيل
ذكريات تعشعش في خبايا الدماغ
وأهل .. وربع .. وماء
تذبل فيها الليالي الطويلة
والنخل هدهده الانحناء
والريح مهمومة لا تبالي
ذكريات تمرغ فيها العبير
والنوم .. والعشب .. والاصدقاء .

②

لثوبي المبلل بالدمع هذي العشية
رائحة الكي في الماء

رائحة الورق الرخو اذ يتساقط دون الخريف
وتطمسه للرياح الكآبة والكبرياء
(لبنان) فى رئتيك أزيز الرياح العتيه
لكنك تكبر .. تكبر .. تكبر دون عناء
إن هذى الكآبة منحدر الكبرياء

③

منكسر هذى العشية إن الطريق أمامى بركة حزن
يبللها بالدم المر جرح
أركض الآن للريح بين الدروب اليك
وعينى بالدمع انهكها البوح
بيوتا من الذعر والخوف ،،
تقبل فى مطلع الشمس كل البغيات
فى الليل .. والليل صرح !..
فهذى الدواليب تمشى ، وداء يهددها بالمواجع شرخ
وجند المماليك يحرصها واقف لا يبالى
قتلت (كمال)
وجند المماليك يحرصها واقف لا يبالى !! ..
يحاكم فى موطنى من يشوه تذكرة للقمار
تصادر فى عالم اللهو أحلى الاغانى !..

④

أركض الآن للريح
وبين ضلوعى همهمة وأنين
أتوزع ما بين حسين
ما بين ذاكرتى ..
ودموعى التى تشحب الآن بين حين وحين
قف أيها العالم الهزلى ..
ففى الرأس وخز الهزائم داء دفين
أيها العابرون فى سبل اللانهايات
خلوا النوى
إننى ذاهب مثلكم فى الشمول

(لبنان) نادى وفى أضلعى رعشة للرحيل
يهددنى فى الوراء الذهول !!..

⑤

(لبنان) انادى وفى أضلعى رعشة للرحيل
واعرف ان الضياع دليلى
وأنى أسافر فى المستحيـل

عبد الحميد مواعده

تصـويـب

لقد ورد بقصيدة الشاعر مصطفى الحبيب بحرى (صك العودة) المهداة الى الاستاذ محمد مزالى ، خطأ فى ترتيب الأبيات :

ويكون الترتيب الصحيح للمقطع الخامس كما يلى :

العهد المشرق يا أمى
أحياه اليوم وقد عادت لى واحات النور
فالله تعالى سبحانه
قد ألهم فكر الصاحب والحرف الأخضر
فأضاءا لى درب العوده
كتبا لى صك العودة . والزورق
أبحـر
مخر الموج الأزرق
ورســابى رغـم الأنـواء المسعـورة فى أمـن الشاطىء
من كان يظن بأن الموج سيحملنى يوما لسلام الشاطىء ؟
من كان يرى أن الشاعر
سيعود لقريته يتفيأ ظل النخلة أو يستلهم لحن الموج ؟

دور كليات التربية في تنمية الفكر التربوي العالمي

بقلم : الشاذلي الفيتوري

– 2 –

شرف الانتساب الى الحضارة الاسلامية العربية ومايستوجبه من مسؤوليات

لا نريد (*) الخوض فى كل عناصر الحضارة الاسلامية وما يفرض ذلك على من يدعى اليوم الانتساب الى هذه الحضارة ، بل نكتفى بان نتتبع ما خلفته هذه الحضارة من سنن فى ميادين العلم والمعرفة والتربية حتى نتبين ما يترتب على المثقف العربى بصورة عامة والمربى بصورة خاصة ان هو رأم التمتع بشرف الانتساب الى هذه الحضارة الاسلامية العربية . نقول هذا ونحن نعالج قضية الاسهام في تنمية الفكر التربوى العالمى ايمانا منا بانه لا سبيل الى افادة الغير ان كنا من المعوزين ولا سبيل الى الاسهام فى اية عملية انمائية تشترك فيها عناصر بشرية مختلفة ان كنا لا ندرى من نحن ولا من اين اتينا ولا الى اين نقصد . وشرف الانتساب هذا يفرض على كل مثقف عربى وعلى كل معلم عربى بالخصوص ان يغرق فى تأمل تاريخ الحضارة العربية الاسلامية حتى يتمثله وحتى يصبح هذا التاريخ جزءا مكونا لذاته ولتفكيره ولوجدانه . وهذا يعنى الفوز من وراء أحداث التاريخ بالقوى الاساسية التى كانت محركا لذلك التاريخ قصد استلهامها من جديد وترويض النفس عليها بعد ما طال عهد انقطاع الصلة بها . وعسى ان يتم بهذا الضرب من الرياضة شىء من استرجاع فتوة الفكر العربى ومن ربط صلة الحاضر بالماضى الحى قصد بناء مستقبل أفضل . وفى هذا ما يضطرنا الى التذكير باطار الفكر التربوى الاسلامى العربى وتأمل المبادىء والقيم التى كانت له أسا قصد الاحاطة بملامحه الاساسية وتبين ما هو نصيب هذه الملامح من الاصالة والمعاصرة حتى يمكن للنظم التربوية العربية ان تنهض على أساسها وان ينبثق منها فكر تربوى عربى أصيل قادر على الاسهام فى انماء الفكر التربوى العالمى .

(*) راجع الفكر – السنة 24 – العدد 3 – ديسمبر 1978 – ص.ص. 24 – 35.

الفكر التربوى الاسلامى ـ العربى : اطاره وملامحه

أ) اطـــاره

جاء الاسلام منذ بدايته يهيب بالانسان أن يكون دوما متعلما لانه بعلمه يحقق ما اسنده المولى اليه من فضل وما كرمه به وخصه به عن سائر المخلوقات . لذلك كانت بداية القرآن بقوله تعالى : « **اقرأ** باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذى **علم بالقلم علم** الانسان **ما لم يعلم** » . وتعددت آيات القرآن الكريم والاحاديث النبوية الشريفة فى تقدير العلم والعلماء وذهب بعضهم الى القول بأن : « العلم أمر عظيم ، وهو أفضل من الجهاد عند اكثر العلماء » (5) وتجاوز الاسلام حث الانسان على طلب العلم الى حمله على عدم القناعة منه (وقل ربى زدنى علما) والسعى دوما الى الفوز بأوفر حظ منه اذ لا تنكشف معانى القرآن الا لمن كان له علم وكان قادرا على التفكير والتأمل والنظر . يقول تعالى :

ـ « وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » (6)

ـ « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (7)

ـ « ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » (8)

ـ « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » (9)

وبهذه النظرة الجديدة اوجد الاسلام علاقة جدلية بين العقيدة والعلم تجعل من اثراء المعرفة وتقدم العلم شرطا ضروريا من شروط رسوخ العقيدة كما

---

(5) برهان الاسلام الزرنوجى : تعليم المتعلم طريق التعلم ـ القاهرة : عيسى البابى الحلبى وشركاؤه (بدون تاريخ) . نقلا عن الدكتور سيد أحمد عثمان « التعلم عند برهان الاسلام الزرنوجى » ـ القاهرة ـ مكتبة الانجلو المصرية 1397 هـ ـ 1977 م

(6) العنكبوت ـ 42

(7) الزمر ـ 9

(8) البقرة ـ 42

(9) الانعام ـ 97

تجعل من مقومات هذه العقيدة الرسوخ في العلم والتمكن منه . وبذلك يكون الاسلام قد نظر الى العلم من حيث هو نافع ودافع للانسان في دينه ودنياه وقد اوضح الرسول (صلعم) ذلك في دعائه اذ قال : « اللهم علمني ما ينفعني وانفعني بما علمتني وزدني علما والحمد لله على كل حا ل» وهكذا يكون الاسلام قد أوجد منذ بدايته « مجتمعا متعلما » (10) وقد ازدادت هذه الصفة للمجتمع وضوحا بعد الهجرة الى المدينة . « فمن المعروف ان أسرى بدر قد أتيح لهم الفداء بان يقوم كل واحد من المتعلمين منهم بتعليم عشرة من المسلمين ، وكانت تلك أول محاولة معروفة لمحو الامية بين الكبار ، وكانت دار ابن ابى الارقم أول مدرسة لتعليم الكبار ينشئها الرسول وهكذا اصبح مجتمع المدينة مجتمعا متعلما ، كان فيه القرآن الكتاب الاول والنبى المعلم الاكبر والمسجد المؤسسة الاولى . ونسج الخلفاء الراشدون على هذا المنوال فاجتمعت لهم صفات القيادة بمعاني الهداية والتعليم ومعاني التدبير والتنظيم » (11)

وان نحن تذكرنا ان الاسلام قد جاء بنظرة جديدة الى الانسان من حيث موقعه من الكون ومن حيث صلته بغيره ومن حيث ربط هذا وذلك بصلة العبد بربه فهمنا أنه لم يقرن بين العلم والايمان فحسب بل جعل قوة العقل في الانسان باعتبارها الطاقة المؤدية الى المعرفة والنظر قوة تصدر عنها كل الفضائل وتتوقف عليها أمانة التكليف (12) . وبذلك يتألف الاطار العام

(10) اقتبست هذه العبارة من كتاب « تعلم لتكون » لايدجار فور وجماعته وهو تقرير وضعته اللجنة الدولية للنهوض بالتربية (اليونسكو) ترجمة د. حنفي بن عيسى ـ نشر اليونسكو / الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر (1974) ـ ص 225 ـ سنعود الى هذا الكتاب والى مفهوم « المجتمع المتعلم » في الصفحات القادمة .

(11) استراتيجية تطوير التربية العربية : تقرير لجنة وضع استراتيجية لتطوير التربية في البلاد العربية ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ القاهرة ـ نوفمبر 1976 . ص 88 .

(12) لقد عبر عن هذا المعنى ابن طفيل احسن تعبير في رسالة حي بن يقظان اذ بين كيف أن جل الحقائق التي جاءت بها الشريعة يمكن أن تنكشف للانسان بمجرد اعمال العقل فاقام الدليل بذلك من جهة على انه لا يوجد تضارب بل هناك تكامل واتصال بين الشريعة والحكمة ومن جهة أخرى على مكانة العقل في النظرة الاسلامية اذ لا سبيل الى الوقوف على أسرار الكون ولا على حكمة البارىء فيه الا به .

للفكر التربوى الاسلامى من مجموع القيم الروحية والاخلاقية السامية التى جاء بها الاسلام لتشييد مجتمع انسانى جديد قوامه **البر** (13) **والتقوى والاحسان والوفاء والبذل** والانفاق فى سبيل الله وما يجعل النفس متوثبة لكل هذه القيم أى الجهاد (14) ، وجوه التآلف والاخوة والتآزر ، وشعاره الامر بالمعروف والنهى عن المنكر والايمان بالله .

وهكذا بعد ما كان التعليم فى بداية الامر يرمى الى الحفاظ على القرآن وعلى العقيدة بصورة عامة سرعان ما استجاب الفكر العربى لتلك العلاقة الجدلية التى أتى بها الاسلام بين العلم والايمان فاشتد حرص المسلمين على التعلم والتعليم ، وتولد بذلك جو تربوى عم كل مظاهر الحياة وارتسمت بذلك الملامح الاولى لما يمكن أن نسميه بالفكر التربوى الاسلامى العربى .

ب) ملامحه :

يجدر بنا قبل التعرف على ملامح الفكر التربوى الاسلامى ـ العربى أن نذكر بأن التربية الاسلامية قد اتخذت من المسجد مؤسستها الاولى وذلك

---

(13) نحن فى حاجة أكيدة الى الوقوف عند هذه المفاهيم الاساسية قصد استخراج معانيها على اساس ما يطابق عبقرية الاسلام ومقتضيات العصر حتى لا نبقى فى فهمنا لها متأثرين بتفاسير سطحية أو بمعان دخيلة هى وليدة عصور الركود . يقول تعالى ، مثلا ، فى البر : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من **آمن بالله واليوم** الآخر والملائكة والكتاب والنبيئين ، **وآتى المال على حبه ذوى القربى** واليتامى والمساكين وابن السبيل وفى الرقاب » .
(البقرة : 177) .

(14) لقد داخل مفهوم الجهاد فى الاسلام كثير من الغموض لتلاشى معناه فى نفوس المسلمين او لانقطاع صلة هؤلاء به . فى حين أن الرسول (صلعم) قد أوضح معناه وبين ان هناك جهادا أصغر متمثلا فى الحرب الدفاعية عن الامة الاسلامية وجهادا اكبر متمثلا فى مقاومة ما يمكن ان يتسرب الى نفس الانسان من عوامل الفتنة . وهذه المغالبة للنفس ولوساوسها وما تقتضيه من حالة يقظة (أو تعبئة ان رمنا استخدام عبارات العصر) هى التى تتوقف عليها ، والى حد كبير ، حيوية الفرد وفتوة الامة فقوتها وعزتها .

منذ عهد الرسول (صلعم) . فلم تكن المساجد فى عصور الفتوة بيوتا للـ مقصورة على الصلاة والاعتكاف فحسب بل كان المسجد دارا للعلم والبحث والتعليم وملتقى لتصريف شؤون الامة اقتصادية كانت أم سياسية وبرلمانا شعبيا تجرى فى رحابه البيعة وتعقد مجالس الشورى وحصنا يحتمى به فى الحرب ودارا للقضاء ومأوى للمسافر وابن السبيل ، فكان بكل تلك الوظائف قلب المدينة النابض ومنطلق نشاطها ورمز تضامن الامة وتكافلها . والتفت حول المساجد فى كل مدينة اسلامية مجموعة من الكتاتيب تعلم القرآن ومبادىء اللغة فكانت تمثل الدرجة الاولى فى النظام التربوى الاسلامى ثم جاءت الدولة العباسية فتطورت المؤسسة التربوية بتقدم المعرفة وتشعبها واحتكاك العنصر العربى بعناصر أجنبية كثيرة وحضارات مختلفة كانت قد بلغت مستويات مرموقة من التقدم ، فانشئت دار الحكمة فى بغداد أيام المأمون ثم أقام الحاكم بأمر الله دارا للعلم مماثلة لها فى القاهرة . وكذلك أنشئت المكتبات وكانت كل هذه المؤسسات تعنى بالترجمة والنقل وبالتأليف والبحث وبالتعليم والدرس وقد ركزت اهتماماتها على العلوم الوضعية ، فتطور علم الطب الى حد كبير وانشئت البيمارستانات (اى المستشفيات) وكانت تعنى بعلاج المرضى وكذلك بالتدريس والتدريب والبحث ، وتطورت حركة التصوف واسست الخوانق والزوايا والربط وكانت مخصصة للمعتكفين على علوم الدين . وحف بهذه المؤسسات جو ثقافى عام كان متفشيا فى كامل المجتمع ، فمن حوانيت الوراقين الى مجالس الخلفاء والامراء وأعيان القوم ومنها الى حلقات الذكر كانت فرص التعلم والاحراز على الثقافة متوفرة لكل فرد من أفراد الامة بأكبر مقدار من المرونة . ثم أنشئت المدارس فى نهاية القرن الرابع للهجرة على يدى نظام الملك فتغيرت طبيعة المؤسسة وانقلبت من مؤسسة حرة منتشرة فى جميع خلايا الامة ، قائمة على أساس خدمة العقيدة والمعرفة فى جو من الحرية المطلقة ، الى مؤسسة حكومية منحصرة فى منشآت تنفق عليها الدولة وتهيمن على تصريف أمورها (15) . فكانت فى خدمة السلطان اكثر منها فى خدمة العلم والايمان .فتقلص بذلك المثل الاعلى

---

(15) وفى ذلك ما يبرز الفرق الكبير بين نظام المساجد ونظام المدارس اذ بقدر ما كانت المساجد مستقلة عن السلطان (اذ كان ينفق عليها من مداخيل ما حبس عليها من اوقاف) لتمتعها باستقلالها المادى والفكرى بقدر ما ستصبح المدارس « مصانع » للعقول والضمائر تكيفها بحسب ما تقتضيه مصالح السلطان وطبقا لاهواء أولى الحل والعقد .

الذى قامت على أساسه حركة التربية فى الاسلام واخذ الفكر التربوى ينذر بالذبول وقد دب الركود فى الامة الاسلامية . لكن قوة الدفع التى كانت للمثل الاعلى الاسلامى سيبقى لها مفعولها ردحا من الزمن يتواصل الى نهاية القرن السابع الهجرى فتتمادى فى كثير من العواصم الاسلامية نشاطات علمية وثقافية متنوعة جاء موسم الحج منذ البداية يقوم مقام الحافز لها اذ كان مناسبة لالتقاء علماء الاسلام من كل صوب وفى كل فن يتناظرون ويتبادلون المعلومات والتجارب والخبرات فكان الحج بذلك عبارة عن جملة من المؤتمرات العلمية تعقد سنويا زيادة على كونه ركنا دينيا (16) .

وحف بكل هذه الاجواء الثقافية والتربوية اهتمام كبير بالتربية من حيث هى فن وصناعة . وتناول الفقهاء والعلماء والفلاسفة بالبحث مشاكل التربية فقلبوها على جميع جوانبها متفحصين أطوارها ومستوياتها ومشاكلها ومقتضياتها الى ان تألف بذلك فكر تربوى أصيل ما زلنا نكتشف ملامحه شيئا فشيئا الى يومنا هذا . وهذه الملامح متعددة الجوانب اذ منها ما هو فلسفى ـ ما ورائى ومنها ما هو اخلاقى ـ اجتماعى ومنها ما هو نفسانى وجسدى .

أما الجانب الفلسفى ـ الماورائى فقد يستخلص من النظرة الجديدة التى نظر بها القرآن الى الانسان وقد كرمه الله وميزه عن بقية المخلوقات وعلمه الاسماء كلها واطلعه على نظام الكون وكشف له عن سر التوحيد ورفع من منزلته الى حد انه امر الملائكة بالسجود له ثم سخر له الكون بما فيه بعد ان خصه بالعقل وفوض له مسؤولية أفعاله . فجاءت بذلك كامل العقيدة الاسلامية متضمنة نظرة شاملة للكون وللانسان ولمصدرهما أى الله هى التى ولدت فى نفوس المسلمين وازع المعرفة والتعلم فتولدت عن ذلك سنن تربوية لا يمكن أن تفهم ان هى فصلت عن اطارها العقائدى .

أما الجانب الاخلاقى والاجتماعى للفكر التربوى الاسلامى فهو متصل بجانب العقيدة وثيق الاتصال اذ جاء المجتمع الاسلامى محددا لعلاقات جديدة

---

(16) يمكن الرجوع بخصوص هذه البيانات الى تقرير « لجنة وضع استراتيجية لتطوير التربية فى البلاد العربية » ص 88 وما يتبعها ، الفصل 6 ـ 2 ـ 6 ، مبادىء التربية العربية .

بين أفراد الاسرة وبين أفراد المجتمع ، كلها نابعة من الايمان بالله وبالملائكة والنبيئين واليوم الآخر . فأوجد الاخوة الاسلامية وغلبها على الاخوة الدموية اذ جعلها أخوة في الله واستبدل بالعصبية القبلية العصبية الدينية وجعل الامر بالمعروف والنهى عن المنكر اساس الحياة الاجتماعية . كما جعل التفاضل بين البشر يقوم على اساس التقوى (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله أتقاكم) (17) وأقر منذ البداية مبدأ المساواة والعدل ومبدأ الحرية وما ينجم عنهما من مسؤولية (وان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفى) (18) فأخرج بذلك أمة مؤمنة متآخية متكاتفة ابناؤها أحرار متساوون مسؤولون . فكانت التربية في مثل هذا الاطار الاجتماعي ترمى الى توليد هذه القيم الاخلاقية السامية في النفوس والى الحرص على تدعيمها . وتألفت بذلك تربية أخلاقيه واجتماعية زخرت بها كتب الفقه كما تناولتها بالتحليل والشرح والاستقصاء كتب الفلاسفة والادباء والمعتنين بشؤون التربية . وكان لهذه التربية مصادر ثلاثة هي القرآن والسنة وسيرة السلف الصالح . وقد يميل بعضهم الى اضافة مصدر رابع متمثل في حركة التصوف اذ شددت هذه الحركة على التربية الاخلاقية والروحية فأضفت عليها صبغة خاصة لا يمكن تجاهلها . ولاختصار القول في هذا الموضوع نسوق فصلا واردا في تقرير « لجنة وضع استراتيجية لتطوير التربية في البلاد العربية » تحت عنوان « الفكر التربوى العربي » .

« وكانت التربية والتعليم ، بهذه المبادىء الاصيلة وبهذه الوظائف الكثيرة، وبهذا التعدد من الانشطة ، وبهذه المكانة في المجتمع موضع دراسة ومناقشة وتحليل على ايدى بعض العلماء من الفلاسفة والفقهاء والادباء ومن اول هذه الدراسات ما ألفه سحنون عن « آداب المعلمين » وما كتبه القابسي بعنوان « الرسالة المفصلة لاحوال المعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين » والف ابن مسكويه ثلاثة كتب في التربية ، كما تناولت كتب الفلسفة جوانب من التربية ومنها رسائل اخوان الصفا ، وكتابات الفارابي وابن سينا وابن رشد والغزالي وابن خلدون ، وقد جاءت آراء هؤلاء متفاعلة مع اوضاع المجتمع العربي الاسلامي كاشفة عن خصائصه ومطالبه من ناحية وعن تفاعلاته بالثقافات والآراء

---

(17) سورة الحجرات ـ 13

(18) سورة النجم ـ 39 ـ 41

الاخرى من جهة ثانية ، ومن هنا يمكن القول بانهم اسهموا فى تكوين فكر تربوى ، لا يقف عند مجرد النقل بل يتجاوز ذلك الى حسن الاستيعاب والتكيف للثقافة العربية وخصائصها والى الابداع والابتكار . وقد تناول هذا الفكر جوانب متعددة من العمل التربوى .

« فالنظرة الى المتعلم ووجوب دراسة الاسس النفسية له كانت موضع تفكير هؤلاء الاعلام ، فيرى الفارابى وجوب استعداد المتعلمين والتعرف الى طبائعهم ، والا كان التعليم هدرا . كما يرى ان نقد سلوك الناس والاتصال بهم هو خير الاوجه لسياسة النفوس وهو من أجل ذلك يحلل قوى النفس ويعدد منها القوة المتخيلة ، والقوة الناطقة ، والقوة النزوعية ، ويميز بين أعصاب الحس واعصاب الحركة .

ويدعو ابن سينا الى التبكير فى التربية ، ويرى البدء بها منذ فطام الصبى لئلا تثبت فى نفسه الاخلاق النميمة فيصعب نزعها ، ويكون تهذيبه بالحمد والتوبيخ وبالايناس والايحاش واذا احتاج الامر الى ضربه ، فليكن ضربا قليلا مؤثرا ، ويؤكد فى نفس الوقت على تعليم الصبى بين جماعته « فان الصبى عن الصبى ألقن ، وهو عنه آخذ ، وبه آنس ، وكثرتهم موجبة لالفتهم ، وللتنافس الحميد بينهم » ويشير ابن سينا ايضا الى أهمية التوجيه التربوى والمهنى ، اذ يرى انه اذا فرغ الصبى من التعليم وجهه المؤدب نحو صناعة (مهنة) تكون موافقة لمزاجه واستعداده ، اذ ليس كل صناعة يريدها الصبى ممكنة مؤاتية ، والناس يتفاوتون فيما يواتيهم من الصناعات ، « وينبغى لموجه الصبى أن يزن ويسبر قريحته ، ويختبر ذكاءه ، فيختار له ما يواتيه من الصناعات » .

« ... ويعزز ابن خلدون هذه النظرة النفسية ويفصلها عندما وضع قواعد عامة ينبغى مراعاتها من جانب المعلمين ، ومن ذلك :

- مراعاة مقدرة المتعلم العقلية من حيث نوع مادة التعليم ومقدارها .
- التدرج بالمتعلم من السهل الى الصعب فى ثلاث مراتب . الاولى لبسائط العلم ، والثانية لجوامعه ، والثالثة صعودا الى مشكلاته ومعضلاته .
- الانصراف الى العلوم واحدا بعد الآخر ، فلا يشتغل بها مرة واحدة .

- تجنب فصل الدروس بعضها عن بعض لمدة طويلة ، ومراعاة التتابع والتكرار خشية النسيان .

- تجنب الشدة على المتعلمين لانها تفسد معانى الانسانية وتضر بشخصية المتعلم .

- الاستعداد والجد من اهم اسس التعليم ، وتفضيل العلوم المقصودة بذاتها على العلوم التى هى أدوات لغيرها .

وهى مبادىء نفسية تربوية تجد ما يؤيدها فى الفكر الحديث .

« ... وقد تناول هؤلاء المفكرون ايضا محتوى التعليم ومضمونه وحاول كل منهم أن يؤكد الجانب الذى يتفق ووجهة نظره للمجتمع ومن ذلك الغزالى ، وقد كان صوفيا فأثرت هذه النزعة فى تحديده للغرض من التربية . فهو يقسم العلوم الى ثلاث فئات : الاولى منموم قليلها وكثيرها كالسحر والطلسمات والتنجيم لانها عديمة الفائدة فى الدنيا وفى الآخرة . والثانية : علوم محمود قليلها وكثيرها وهى الدراسات الدينية والعبادات لانها تساعد على معرفة الخير والتقرب من الله . والثالثة : يحمد منها بقدر معين مثل فروع الفلسفة وبعض المذاهب الطبيعية .

« أما ابن خلدون ، فقد تأثرت آراؤه التربوية بفلسفته الاجتماعية . فهو يرى ان الانسان حيوان مفكر اجتماعى ، وعن فكره تنشأ العلوم والصنائع ولذلك فانه يسعى الى المعرفة والى تحصيل ثقافة الاجيال السابقة . فان العلم والتعليم طبيعى فى البشر ويرى ان انتشار التعليم وتقدم العلم متوقفان على الحضارة . كما ان مستوى الحضارة يتوقف على التربية ذلك ان التفاوت بين الناس يرجع الى التربية لا الى اختلاف الطبيعة الانسانية من مكان الى آخر .

« وفى آراء هؤلاء المفكرين وجوب التعليم وضرورة السعى الى العلم ومن ذلك على سبيل المثال ما يأتى فى كتاب القابسى حتى أوجبه وقال بالزاميته .

ويحتل العلم مكانة كبيرة فى آرائهم، فيصفون كيف يختار، وكيف يعامل الصبيان ، وكيف يعالج أمور التعليم . وقد فطن اخوان الصفا على سبيل المثال ــ الى قيمة المعلم وضرورته فى تلقين العلوم والمعارف .

« فالمعلم وسيلة من وسائل كسب المعرفة .. ومن اجل هذا يحتاج كل انسان الى معلم او مؤدب او استاذ فى تعلمه وتخفه واعتقاده واعماله وصنائعه » .

ويرى ابن سينا ان المعلم ينبغي ان يكون عاقلا ، ذا دين ، بصيرا برياضة الاخلاق حاذقا بتخريج الصبيان ، وقورا رزينا بعيدا عن الخفة والسخف قليل التبذل والاسترسال بحضرة الصبى » (19)

تبدو هذه اللمحة عن الفكر التربوى الاسلامى العربى مفعمة بكثير من الاتجاهات والآراء التى جاءت على نصيب من المعاصرة ما قد يجعلنا نحار فيما كان لرواد هذا الفكر من حدة نظر وقوة حدس ما جعلهم يغوصون على اعماق النفس البشرية وعلى مختلف مظاهر النشاط الفكرى وعلى طبيعة الصلات المتولدة بين المعلمين والمتعلمين فى مجال التعليم وعلى قوانين التعلم المستخلصة من طبيعة الادراك والفهم والحفظ ما لو نظر اليه على ضوء تطورات علم النفس التربوى الحديث لكان مطابقا لها فى أغلبه بالرغم مما يفصل بين هذا وذاك من مسافة زمنية ومن تطور لعلوم التربية فى هذا العصر. ولعل ما يفسر هذا التقارب وهذا النوع من التطابق هو حرص الاسلام من جهة على طلب العلم وعلى التعرف على اسرار النفس البشرية من جهة ثانية الامر الذى جعل علماء الاسلام يغرقون فى التأمل الباطنى كما يدققون الملاحظة فى تتبع أصول النفس البشرية مهتدين فى كل ذلك بما تضمنه القرآن من حقائق ما فتىء العلم الحديث يقيم الدليل على ثبوتها وصحتها . ويكفى فى هذا السياق أن نذكر كتاب « موريس بوكاى » بعنوان « التوراة والانجيل والقرآن والعلم » (20) الذى نشر فى باريس سنة 1976 والذى انتهى صاحبه فيه الى هذه النتيجة قائلا : « ان القرآن من حيث هو تنزيل يأتى فى سياق الرسالتين السابقتين له ، (21) ليس خلوا فحسب من التضارب الذى انطوت عليه قصص التوراة والانجيل (هذا التضارب الذى يدل على ان صياغة الكتابين كانت صياغة انسانية) بل هو يكشف لمن أقدم على تفحصه

(19) انظر التقرير المذكور ص : 99 الى 101 .

(20) Maurice BUCAILLE : " La Bible, le Coran et la Science : les écritures saintes examinées à la lumière des connaissances modernes. " Seghers, Paris 1976, 255 Pages.

(21) أى رسالة موسى ورسالة عيسى عليهما السلام .

بكل موضوعية وعلى ضوء العلم عن طابعه الخاص المتمثل فى **مطابقتـه تمـام المطابقة لمعطيات العلم الحديث** . بل واكثر من هذا فان الباحث يفـوز مـن خلاله،كما اسلفنا، بجملة من المعانى العلمية لا يستقيم عقليا ان تكون صادرة عن رجل معاصر لمحمد . وهكذا تكون المعطيات العلمية الحديثة مما يمكن من فهم ما لم يتسن تفسيره الى الآن من آى القرآن ... ولا يجوز عقلا ان نتصور ان الكثير مما ورد فى القرآن من المعانى العلمية قد كان من ابتكـار انسـان وذلك بالرجوع الى ما كانت عليه المعرفة العلمية فى عهد محمد . لذا بات من المشروع ليس فحسب القول بان القرآن تنزيل بل اعطاء هذا التنزيل كذلك مكانة خاصة من اجل ما يتمتع به من ثبوت صحته ومن اجل ما تضمنه من حقائق علمية تبدو عند تفحصها فى عصرنا هذا ضربا من التحدى للتفسير البشرى . » (22) وفى الاعتراف للقرآن بما تضمنه من حقائق علمية من طرف رجل مثل موريس بوكاى وهو الطبيب الجراحى الذى لـم يحركـه الا وازع المعرفة والاطلاع ما يزيد فى دعم ما اتفق عليه منذ بداية الحضارة الاسلامية من ان القرآن هو المصدر الاول لكل تفكير علمى او فلسفى وكذلك ما يمكن ان نعلل به جانبا كبيرا مما هو ماثل فى تراثنـا العلمى من عبقـرية لا يمكن ادراكها ان هى فصلت عن العقلية الجديدة التى اوجدها الاسلام وعما تضمنه القرآن من اسرار ربانية لا يفوز بها المؤمن الا بفتح من الله وبكثير من الجهد.

ـ يتبـع ـ

الشاذلى الفيتورى

(22) موريس بوكاى : نفس المصدر ـ ص 254 ـ 255 .

في مغانيا الخضراء

شعر : احمد الطيب معاش

إذا جئت يوما إلى (قربص) فعرج على (سيدى الرائس)
(سليمان) يدعوك قبلهما فزر شطه تحظ بالمؤنس
ولا تفش سرا لـ (سدرية) و (مغنى القباب) لدى الغلس
ففى كل ركن وزاوية مهار تتوق الى السائس
تلاحظ فى كل منتجع ظباء تلوذ بمؤتنس
فسل الفؤاد ولو لحظة ولا تخش لوما من الناعس
ينام الخلى بلا فتن وتسهر ليلك كالحارس
اذا كنت فظا غليظ الفؤاد فكن مرة لين المجلس
وخل الهموم وأعباءها وخل التعاسة للتاعس
وعش لحظة فى مغانى الجمال تر الحور ترفل فى السندس
تجىء نهارا الى (قربص) وتشتاق ليلا الى (تونس)
وقبل رجوعك عند الاصيل تأمل تجد بهجة الانفس
على (الأنف) ترقد شطآنه وتصحو على خده الأملس
تشاهد من (برجه) بسمة على ثغر (زهراء) أو (رادس)
وفى (حلق واد) وفى (كرم) كروم ترحب بالمحتسى ..
و (قرطاج) تكشف عن سرها فتبعث بالورد والنرجس
و (بو سعيد) يبدو كفاتنة تلوح بالسحر للفارس
و(مرسى) بها أرست الراسيات.. تسبح بالروح والقدس ..

و (ثمرت) أبدت مفاتنها ... ففاقت رؤى الوهم والحدس
على ربوتيها يطيب المقام ... ويحلو اللجوء لمبتئس
اذا حام فى جوها خاطر ... رمته الى عهد اندلس
جمال ، وفن ، وهندسة ، ... وسحر من العهد كالقبس
أعاد لخضراء أمجادها ... وخلدها كذرى الاطلس
وحببها للنفوس جميعا ... كأغنية حلوة الجرس
تغنى بها (معبد) و (الغريض) ... وجاد بها ساحر المنبس
لها ثقة الطفل أو قلبه ... لها خلق الحاذق الكيس
لها صولة مثل ليث الشرى .. ... وفى قلبها حرمة المقدس
فداك – بلادا درجت بها – ... فداك بما فى من نفس ..
أحبك تونس رغم الهوى ... ورغم النوائب والحندس
فأنت المنى والهنا والسنا .. ... يضم الخليج الى الاطلسى
فما العرب إلا بلاد ترامت ... وشعب تحرر من مرس ..
وما الحب غير شغاف فؤاد ... أسير مغانيك يا (تونسى)

أحمد الطيب معاش
الزهراء (تونس)

المادية الجدلية أم جدل الانسان

معلم الحيب الحى

فهل فى المادية أزمة ؟

اذا رجعنا الى قول سطالين السابق فى كيفية انبثاق الافكار وعلاقتها بتطور الحياة المادية لمجتمع وفى تأثيرها على التطور الاجتماعى نستطيع أن نتبين ما يلى :

أ) إن الحياة المادية تتطور بعيدا عن الافكار وقبل انبثاق هذه الافكار ، والافكار نفسها هى نتاج التطور المادى .

ب) إن الافكار التى سبق أن انبثقت تعود فتسهم فى انجاز المهمات الجديدة . ولا يمكن فهم هذه المهمات الجديدة الا باعتبارها خطوة جديدة فى التطور .

فما هى ديناميكية التطور كما تراها المادية الجدلية ؟

إنها كالآتى :

فى حالة التطور الذى لا يتوقف توجد مهمات جديدة فتنبثق أفكار جديدة لتسهم هذه الافكار فى انجاز تلك المهمات . معنى هذا أن هناك دورة كاملة للتطور بدأت بالمهمات وانتهت بالافكار والصعوبة كلها ، كما لاحظ سارتر بعمق ، تكمن فى سير هذه الدورة مرة أخرى ابتداء من الافكار بعد انجازها للمهمات التى كانت جديدة .

وبناء على أن حركة التطور دائمة . فالمشكلة الكبرى التى تواجه الماديين ــ المبتذلين ، الارثوذكسيين ــ تتمثل فى هذا السؤال : كيف وقد وقفنا عند الافكار أن نبدأ منها لتطوير المادة دون أن نعترف لها بالقدرة على الخلق وهم ينكرون عليها هذه القدرة ؟

(*) راجع العدد 3 من مجلة الفكر ــ السنة 24 ــ ديسمبر 1978 .

ويبدو أن الكتابات الماركسية الحديثة ، أو قل القراءات الحديثة لها ، اصبحت تعترف اعترافا يكاد يكون حاسما بدور الفكر فى التطور الانسانى وليس هذا انحرافا ، أو تشويها للفكر الماركسى بل هو تصحيح وتطوير له على حد زعمها .

وجدير بنا أن نلاحظ ما يلي : بعث انجلز برسالة الى صديق معاصر له يسمى « بلوخ » بتاريخ 21 / 9 / 1890 جاء فيها :

« لقد كنا ماركسيين وأنا مسؤولين جزئيا عن تركيز الشباب على الجانب الاقتصادى تركيزا أكثر مما يستحقه . لقد كان لا بد لنا نحن من أن نركز على المبدأ الاساسى فى مواجهة معارضينا الذين ينكرونه ولم يكن يتوافر لنا دائما الوقت والمكان والفرصة المناسبة لنسمح للعناصر الاخرى بالتدخل فى التأثير المتبادل بالقدر الذى تستحقه » .

(راجع : ماركس انجلز : دراسات فلسفية الطبعة الفرنسية ، المنشورات الاجتماعية ، باريس 1968 ، ص 154 ، ص 156) .

يؤكد هذا النص على طابع رد الفعل والتحدى من أجل إثبات الوجود أمام التيارات الفكرية الاخرى ، الامر الذى جعل الماركسية تغالى فى الالتجاء الى الرؤية المادية لتفسير كل حدث إنسانى . يعترف الماديون الجدليون بالتأثير المتبادل بين الفكر والمادة عندما يعلنون : « إن الافكار قد انجزت المهمات التى وضعها التطور المادى » . ولكن المشكلة ليست هنا بل فى اتساق هذه الحركة الجدلية بعد انجاز الافكار لعملها ، ولكى تتسق الحركة لا بد من القول بأن الافكار تعود فتضع أمام التطور المادى مهمات جديدة أى القول بأن الفكر يخلق المادة وهذا ما يتهرب منه الماديون الجدليون .

نصل مما تقدم الى نتيجة خامسة :

– إن أزمة المادية الجدلية هى نفى الصفة الخلاقة عن الانسان بالرغم من التراجع والتلاعب اللفظى والتخريجات الجديدة للمنظرين المحدثين .

– انتقل السؤال من : أيهما وجد أولا المادة أم الفكر ؟ الى السؤال : أيهما يلعب الدور الاساسى فى حركة التطور .

إن « قضية الاساسى وغير الاساسى قضية فارغة من أى مضمون حقيقى ، إذ عندما تتوقف نتيجة ما على شرط أو أكثر ، بحيث لا تقع الا باجتماعهما معا يكون من اللغو القول بأن هذا الشرط أساسى وذلك الشرط غير

أساسي . فضرورة أي شرط لتحقيق أي شيء يجعل من هذا الشرط أساسا لوجوده » .

(د. عصمت سيف الدولة ، أسس الاشتراكية العربية ، ط. الدار القومية، القاهرة 1965) .

إن فكرة الاساسي وغير الاساسي ، ليست في نهاية التحليل غير تعبير عن اختيار فكري – فلسفي مبدئي وليست نتيجة استقراء واختبار علمي .

وقد كان ماركس جدليا 1843 عندما كان يكاد يكون جاهلا بتاريخ ومبادىء الاقتصاد السياسي ، ثم ثقف نفسه في هذا الميدان فعرف **أدوات الانتاج ، والقيمة** وغير ذلك من مصطلحات هذا العلم فأصدر مع انجلز سنة 1848 « **البيان الشيوعي** » متضمنا « **أسس** » نظريته في تفسير التاريخ **ماديا** .

وصرح انجلز في تعليقه على طبعة 1888 لـ « **البيان** » بجهل ماركس لما وصل الى اكتشافه العالم مورجان Morgan من كون المجتمعات البشرية مرت بأطوار شيوعية في البداية . وبسبب ذلك انتهى ماركس الى كون النظام الشيوعي لن يتضمن متناقضات دون التفطن الى أن الاول كان خاليا من ذلك ومع ذلك حصل التطور ، فلا بد ، طبقا لنظريته في التطور التاريخي ، من أنه كان متضمنا لمتناقضات) .

نصل من ذلك الى **نتيجة** سادسة :

– عن وعي أو عن غير وعي منه ، فقد درس التاريخ من منطلق مادي جدلي ، ولم يدرس التاريخ كبداية ليعرف قوانين تطوره . تلك نقطة هامة يجب الانتباه اليها .

– يصرح ماوتسي تونغ في فصل « **عن التناقض** » من كتابه : « **أربع مقالات في الفلسفة** » (ط. الفرنسية بيكين 1966 ، ص 65 – 66) بما يلي : « عندما يعرقل البناء الفوقي (الثقافة ، السياسة ... الخ) تطور القاعدة الاقتصادية ، فان التغييرات السياسية والثقافية تصبح هي الامر الاساسي والحاسم » . ثم يتساءل هل يعد هذا مناقضا للتمسك بالمادية الجدلية ؟ ويجيب بالنفي : « لأننا نعترف بأن الاساس المادي خلال المجرى العام للتطور التاريخي يحدد الاساس الروحي والوجود الاجتماعي ، لكننا نعترف في نفس الوقت ويجب أن نعترف بالفعل الراجع الى الاساس الروحي في الاساس المادي » إنه التراجع الذكي الذي تفرضه الظروف الايديولوجية والسياسية .

ويصرح كتاب حديث **ألفه 39 عالما سوفياتيا 1963** صدر تحت عنوان : « أسس الماركسية ـ اللينينية » (**نقلا عن أسس الاشتراكية العربية** . د. عصمت سيف الدولة) بقوله : **يجب « أن نعرف التأثير المتبادل بين العوامل** والظواهر المختلفة **بل أن نعرف الجانب الحاسم فى التأثير المتبادل . فعند** اكتشاف هذا فقط **نستطيع أن نفهم فهما صحيحا** مصدر الحركة وأن نقدر القوى الخاصة بها **وأن نعرف الخط الاساسى واتجاه التطور » التطور قائم ولا** نزاع حوله أو نقاش .

أشار ماركس فى ج 1 **من رأس المال الى الاختلاف المنهجي بينه وبين هيجل** والتناقض الحاسم بينهما . فاذا كان **هيجل يجعل** حركة الفكر « **ذاتا** » **يطلق** عليها « **الفكرة** » **وهى التى تصنع الواقع ، وأن الواقع هو الصورة الذهنية** للفكرة فان ماركس يرى **العكس هو الصحيح فحركة الفكر هى الانعكاس** الامين للحركة الواقعية منقولة الى المخ .

وهكذا تنقل قوانين الجدل الهيجلية من مستوى **الفكر** الى مستوى **المادة** فتعطى «**المادية الجدلية**» وتنقل الى مستوى التاريخ فتعطى «**المادية التاريخية**» وتنقل الى المستوى الاقتصادى الراسمالى فتعطى « **الشيوعية** » كنتيجة « **حتمية** » لمراحل تطور الانتاج وعلاقاته . وبناء على ذلك **ليس غريبا أن يصرح** ماركس فى « البيان الشيوعى » بـ « **أن دور الشيوعيين مقصور على التعبير عن حركة** تاريخية تجرى تحت أنوفهم» **قول منجسم مع المقدمة للايمان بالحتمية** فى التطور التاريخى **حسب قوانين مستقلة عن ارادة ووعى البشر** .

دافع عن هذا **لينين العظيم فى كتابه « المادية والنقد التجريبى »** (راجع دراستى بمجلة « الفكر » ، عدد 6 ، مارس 1977) .

قبل قيام ثورة 1717 الاشتراكية وقيادته لها **ولكن ممارسة النضال بعد الثورة** وتحمل أعباء قيادة التغيير الاجتماعى فى مختلف مجالاته بين أن الممارسة تسير على غير انضباط بالنظرية وأن بالنظرية قصورا واضحا أمام الواقع ولذا قال : « **إن عقل الانسان لا يعكس العالم الواقعى فحسب بل** يخلقه أيضا » لاحظ يخلقه بدلا من **يطوره** أو **يغيره** .

واليوم نلاحظ مراجعة جذرية ، فى الخفاء ، (حبذا ونحن ننادى بالتفتح على العالم أن لا يكون مقصورا على فرنسا الامر الذى جعلنا **لا** نقرأ حتى

الماركسية إلا من خلال الثقافة الفرنسية) للاسس التى تقوم عليها « المادية الجدلية » . وهذه بعض النماذج من حوار الكاتب المصرى الماركسى الدكتور مراد وهبة مع الفلاسفة السوفيات فى موسكو (راجع كتابه : محاورات فلسفية فى موسكو ، ط. دار الثقافة الجديدة ، القاهرة 1974) .

أ) إنكار حتى للمنطق الجدلى : يقترح ماركوف وروزفاتين إلغاءه كلية . فطلب د. مراد وهبة ، مستغربا ، الى بجمولف تفسيرا لهذه الظاهرة فكان جواب الاخير بأن ذلك مردود الى اهتمام الدولة بالتطور الاقتصادى والتكنولوجى وما يترتب على ذلك من مشكلات ليس فى امكان المنطق الجدلى حلها ولذا وقع التركيز على المنطق الصورى والرياضى (بعد أن كان هذا المنطق الصورى موضوع سخرية فى الفترة السلطالينية) .

ب) يقول بجمولف (أستاذ فلسفة جامعة موسكو) بالاتفاق الكامل مع لينين عندما يقول : بأن الجدل « ليس دوقما بل هو مرشد للعمل » . ولذلك فلا يرى بجمولف « ما يمنع من احداث تعديل فى المادية الجدلية » اذا ما ظهر ما يناقضها فى مستقبل العلم . وأن الفلاسفة السوفيات يتبنون هذا الاتجاه والدليل على ذلك أن أشكال الحركة كما تصورها انجلز هى موضوع مناقشة . وخلاصة ذلك أن مفهوم انجلز للحركة ليس دقيقا .

ويعلق نارسكى (أستاذ فلسفة ، جامعة موسكو) بأنه ليس غريبا أن يطرح لينين أفكارا متعارضة مع بعض مما قال به انجلز فمثلا : المادة عند انجلز موضوع حسى ، فى حين أنها عند لينين : « الواقع المادى خارج الذات » أى أنها مقولة فلسفية .

وقال بيدف أستاذ علم الاجتماع (كلية الفلسة جامعة لينينغراد) : إن ماركس لم يعالج الانسان على أنه « **ذات** » بل على أنه « **موضوع** » ، فسأله د. وهبة : أليس الالتفات اليه كـ « ذات » كفيل باحداث تعديلات فى بعض المبادىء الماركسية ، فأجاب بيدف : « ليس ثمة مانع من ذلك اذا لزم الامر » . من المعروف أن التعريف الماركسى للانسان هو أنه : « جملة علاقات اجتماعية » .

ج) إتجاه الى تعديل فى « **المنهج** » .

يقول كل من دبوفسكوى وشيلين (أستاذا فلسفة ، جامعة موسكو) : ليست المعرفة مجرد انعكاس للموضوع المدرك ، بل هى كذلك خلق جديد

وتغيير لحالة بهدف تلبية احتياجات الانسان . وهما يسخران من نظرية « **الاستجابة السلبية** » ويقولان إن هذه النظرية لا يروج لها الا **العوام** وبعض الفلاسفة « الذين يتصورون أنهم ماديون جدليون » ـ وكم هم كثيرون فى وطننا العربى ـ ذلك أن هذه النظرية تتصور « الذات العارفة » لا على أنها « **فعالة وخلاقة** » ولا على أنها « **هادفة** الى تحقيق رغباتها وارادتها » .

ـ يقول ألنيكف (أستاذ فلسفة) : إن الذات تنطوى « **على شىء ما** » يسهم فى « **تكوين الموضوع** » . ثم يسأل عن مفهوم الانعكاس ؟ ويجيب : إن المعرفة عملية عزل للموضوعات ثم انتقاء لواحد منها قصد ادراكه . ومن هذه الزاوية يقال : إن الموضوع ينعكس فى الذات ، ولكن بين نقطة البداية والنهاية توجد عمليات بيولوجية ونفسية واجتماعية .

ـ ويعلق كوزنتسوف (أستاذ فلسفة ، جامعة موسكو) على قول لينين : إن المعرفة : فى جوهرها « **انعكاس لواقع** » وبأن المشكلة كلها تدور على مفهوم « **انعكاس** » وهذا المفهوم عند الفلاسفة السوفيات فى طريقه الى أن يتحول . إن لفظة « **انعكاس** » **يجب أن لا** تفهم حرفيا بل **يجب أن تؤخذ على** أنها لفظ ينطوى على « **تشبيه** » **أو** « **استعارة** » .

فأين تصورنا للانعكاس من هذا الكلام . لنتثبت قبل أن ننطق ونلهج بما لا نعرف .

ـ يقول بلاتنيف وماتشيمانف (أستاذا فلسفة) إن للعقل « **قدرة خاصة على الابداع والخلق** » إنه ليس سلبيا بل إيجابيا إنه يضيف الى ما هو معطى له.

ـ يقول روزنتال مؤلف كتاب « **مبادىء المنطق الجدلى** » : إن الفكر فى حركته يصدر عن العينى فى الادراك الى المجرد . ومن المجرد الى العينى . ولكن فى هذه المرحلة يصعد على أساس جديد وأرقى .

ـ يقول نارسكى (أستاذ فلسفة ، جامعة موسكو) : إن العلم يستطيع أن يقدم حاولا لما فى اذهاننا من قضايا ولو أن الماركسيين الفلاسفة قبلوا هذا لأمكنهم تجاوز كثير من **السخافات** . منها : استبعاد المنطق الرياضى وعدم الثقة فى المنطق الصورى ونظرية النسبية والسيبرنطيقا .

نلخص أهم ما أوردناه من الافكار منذ بداية البحث فيما يلى :

1) تنازل عن التمسك بأن المادة هى الوجود الاول .

2) انعكس ذلك على الموقف من التطور .

3) ترك أولوية الوجود الى التأمل الميتافزيقى .

4) نتج عن ذلك اختيار البداية بعد الوجود الاول أى مواجهة « **الفكر** » و « **المادة** » وقد وجدا فعلا .

5) والاعتراف لكل منهما بدوره فى عملية التطور (راجع جان بابى Jean Baby نحو عالم أفضل . طبعة ماسبرو الفرنسية باريس : 1973 . فصل : التراكيب الفوقية والتحتية) . وأن أيا منهما لا يلعب الدور الحاسم .

6) ابراز الفاعلية الايجابية **للذات** ، للعقل ، وفى كلمة واحدة للانسان فى عملية التطور الاجتماعى وفى مواجهة « الموضوع » : المادة ، أدوات الانتاج .

المعرفة الحسية والعقلية :

يقول أصحاب « أسس الماركسية اللينينية » :

ــ الادراك الحسى هو أول خطوة للمعرفة .

ــ الحواس لا تستطيع ادراك الطبيعة الداخلية للظواهر وعلاقاتها وصلاتها الضرورية .

ــ إن الوصول الى معرفة العالم المحيط بنا تحتاج الى معرفة تختلف نوعيا هى التفكير الذى يأخذ شكل الفهم والادراك والحكم والافتراض والنظرية .

ــ الادراك الحسى يعلق بالفرد والجزء والوقائع العلمية أو الاوجه الخارجية للظواهر .

ــ لكن الادراك المجرد يعكس الاعماق الداخلية للحقيقة لانه لا يتبع الوجه الخارجى المحسوس للظواهر ، ويميز العلاقات والعلاقات الجوهرية .

ــ قوة الفكر تتمثل فى قدرته على التجاوز وتصور المستقبل بواسطة القوانين الموضوعية التى اكتشفها .

ــ الفكر ونتاجه (الادراك) متصل بالعالم الموضوعى اتصالا مباشرا خلال نشاط الادراك الحسى .

ـ لا يتقيد الادراك الفكرى بالوقائع المحسوسة ولا يتوقف عليها نسبيا ، ولذا جاءت قدرته على تحليل الظواهر والدراسة النظرية .

نصل من كل ما سبق ذكره الى نتيجة سابعة :

انهيار ركن آخر يتمثل فى اعتبار الفكر انعكـاسا للمـادة واصبحت له فائدة ذات وظيفة خاصة .

ما العلاقة بين المادة والفكر ؟

يقول أصحاب « الاسس » المذكورة :

ـ الفكر (نشاط الذهن) خاصة مميزة للمادة ولكن ليست شكلا خاصا من أشكالها .

ـ المادة : هى أى شىء خارج العقل ولا يتوقف عليه .

ـ من الخطأ اعتبار الفكر جزءا من المادة وفى الوقت الحالى يعتبر التوحيد بينهما من المفاهيم المادية المنحطة .

هل معنى هذا أنهما منفصلان ؟

يقولون :

ـ المادية الجدلية ترفض فصلهما لان هذا من مخلفات النظـرة البـدائية عندما كانت الظواهر تفسر بالرجوع الى الروح التى يفترض دخولها الجسم.

هل معنى هذا أنهما متصلان منفصلان ؟

يضيفون :

ـ إن حل المشكلـة السيكوفيزيولوجية : العـلاقة بين النشاط العقـلى وجهازه المخ (عضو مادى فسيولوجى) يجب النظر فيه الى كل من الاختلاف والاتصال بينهما .

ـ من المهم وعى الخلاف بينهما لان الوحدة تؤدى الى الغموض .

ـ ومن جهة أخرى لا يمكن فصل الوعى عن المخ لانه من وظيفة المخ .

إنهما متصلان مختلفان مع الاعتراف بوجود المادة وتأثير الفكر .

وهكذا نصل الى **نتيجة** ثامنة :

لم نعد قادرين على معرفة تطور العالم واتجاه تطوره عن طريق معرفة قوانين تطور « **المادة** » أو قوانين تطور « **الفكر** » .

ولما كان لا بد من البحث عن طريق واحد (حتى لا نسقط فى الثنائية) يجمع بين الفكر والمادة (حتى لا نسقط في الجهالة البدائية) ولا يوحد بينهما (حتى لا نسقط فى المادية المنحطة) ، فأين يا ترى يمكن أن توجد تلك الوحدة ؟

وهكذا نصل الى نتيجة ثامنة هامة :

ـ إن تلك الوحدة توجد فى الانسان ! نعم فى الانسان !

يقول أصحاب « **الأسس** » : إن النشاط المادى للانسان هو نقيض نشاطه الذهنى ، غير أن هذين النقيضين يتداخلان كل فى الآخر ويؤلفان وحدة ذات وجهين للحياة الاجتماعية ، غير قابلين للانفصال ومتفاعلين » .

إنه التراجع أيها الرفاق .

هل هناك قوانين تطور لتلك الوحدة من المادة والفكر ؟

إذا كان من الممكن الحديث عن التغيير الانسانى لحياة فى مختلف نواحيها ، أى اذا كان من الممكن أن نتحدث عن مستقبل آخر بدليل عن الحاضر الماضى (لأن الحاضر امتداد الماضى) فلا بد من معرفة « **منهج** » التغيير . كيف لا نبحث عن « المنهج » ؟ وكل الماركسيين ومنهم الروسى أفانا سييف فى كتابه : (الفلسفة الماركسية) يؤكدون على « **المنهج** » إذ بدونه لا يمكن حل أى مشكلة علمية أو عملية وكيف لا نبحث عن « **المنهج** » وانجلز يقول بأن « الممارسة هى « **محك النظر** » وأنها أى الممارسة ضمن « **نظرية المعرفة** » . فالمنهج يصحح بالممارسة الفعلية .

هكذا نجد أنفسنا أمام منهجين :

أ) اتخاذ ما يؤدى اليه الادراك الحسى فنكون أمام التجربة والخطأ .

ب) اتباع ما انتهى اليه الفكر واكتشفه « وهو يعكس الاعماق الداخلية للحقيقة » أى اتباع احكام النظرية . أكد لينين فى ج 14 من كتاباته أن « الممارسة الفعلية يجب أن تكون الاساس الاول فى نظرية المعرفة » . كما أكد أنه يجب أن لا نعتبر النظرية الماركسية شيئا كاملا لا يمكن المساس به بل

إنها أرست فقط حجر الزاوية للعلم الاجتمـاعي . وأنه يجب على الاشتراكيين أن يتقدموا في كافة الاتجاهات اذا أرادوا أن يحفظوا للحياة تقدمها .

وهكذا نصل الى نتيجة تاسعة :

ابتدأت الماركسية بمنهج صريح محدد وانتهت بمنهجين :

أ) المادية الجدلية ، نظريا .

ب) الممارسة الفعلية ، عمليا .

وللتأكد من الخطأ المنهجي للمادية الجدلية كما تبرزه التجربة يمكن مراجعة خطاب اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني الى مثيلتها السوفياتية بتاريخ 29 / 2 / 1964 وخطاب سوسلوف في اجتماع اللجنة المركزية السوفياتية يوم 14 / 2 / 1964 .

وهكذا نصل الى النتيجة العاشرة :

ـ لا بد من تصحيح المنهج أو السير طبقا لمنهج التجربة والخطأ العشوائي .

الى حد هذه النقطة نكون قد قمنا بالجانب السلبي من عملنا وهـو كشف الاختلاف بين ما تسير عليه الحياة وأساليب التغيير الاجتماعي في التجربة وما تبنى عليه النظرية « المادية الجدلية » في المعرفة والتغيير .

إنها ليست إدانة لمجرد الادانة كما تمليها المصلحة الطبقية او الافكار القبلية بل محاولة لتنظير الممارسة كما يقدمها الواقع الحياتي البشري خـاصة بعد قيام ثورات اشتراكية كبرى في العالم .

نحن من الذين يؤمنون بأن لا وجود لغير ماركسية واحدة منطلقها الاصلي « المادية الجدلية » ، فكل خطأ بعد ذلك لن يكون الا في التخريج والاستنتاج أو ذلك في الاصل بالذات . أما ما يدعيه الماركسيون الجدد من تجديـد وتطويـر للماركسية فلا أساس له من المنطق . كثيـر غيرنـا من تنـاول التخريجات والاستنتاجات وكشف عن انحرافها عن « المادية الجدلية » مدافعا عن الاصل أو مبينا خطأ ذلك الاصل دون أن يتجاوز ذلك بخطوة . أما نحن فاننـا قمنـا بتصحيح المنهج ليستقيم على قدميه من جديد .

وقبل أن نورد هذا التصحيح للمادية الجدلية نسأل هذا السؤال : هل بقي معنى ، بعد كل الذي أوردناه ، لوصف الانسان بأنه مـادي أو مثـالي (كما عودنا القاموس الماركسي الارثوذكسي) لتقع المعرفة والتصرف على ضوء مـا نعرف من كون المادة والفكر تتبادلان التأثير والتأثر .

لهذا نلتقى عند القوانين الجدلية الهيجلية التى أخذ بها ماركس رغم اختلاف هيجل عن ماركس من حيث المنطلق الفلسفى كما رأينا . ولكن رأينا أيضا كيف التقيا .

القوانين الجدلية بعد التصحيح : (د. عصمت سيف الدولة ، المرجع نفسه) .

لقد اثبت العلم هذه القوانين :

1) الطبيعة وحدة ترتبط فيها الظواهر والاشياء ارتباطا كليا وعضويا ويكيف بعضها بعضا بالتبادل ومعنى هذا أن كل شىء مؤثر ومتأثر وقد أضاف العلم الى هذا مبدأ النسبية من حيث مدى التأثير والتأثر .

2) كل شىء متجدد باستمرار وفى تغير دائم نتيجة للحركة الدائمة . واثبت العلم الحديث أن أصغر جزء من المادة وهو الذرة عامر بالحركة التى لا تهدأ .

3) التغيرات الكمية تؤدى الى تغيرات كيفية . واذا كانت الاولى لا دلالة لها فالثانية ظاهرة وجذرية . وتخضع المادة فى سيرها لقوانين حتى ولو لم ندركها . وإن قصور حواسنا ووسائلنا عن ادراك « دلالة » التغييرات لا يعنى أنها « كمية » وليست « كيفية » . فالتقسيم بين تغييرات « كمية » و « كيفية » هو تقسيم فكرى لمراحل التطور كما يذكر اصحاب « الاسس » أنفسهم : « يجب أن نتذكر دائما أنه لا يوجد طبعا « نوعية » بذاتها . هناك أشياء وظواهر متميز بعضها عن بعض بخصائص نوعية عندما تصل التغيرات « الكمية » الى نقطة معينة تتغير خصائص المادة « نوعيا » فتتحول الاشياء من شىء الى شىء مختلف » .

ولنا أن نضيف ما يمكن أن يرفع به خلط فى مسألة حركة المادة ، وهو أن كل نوع من المادة كالنبات والحيوان والجماد ، وكل نبات أو حيوان أو جماد له قوانينه الخاصة أى النوعية التى تحدد مدى تأثيره فى غيره وتأثره بغيره من المواد : فهناك قوانين للنبات تكون علم النبات مثلا وغيرها للحيوان تكون علم الحياة وغيرها للجماد تكون علم الجيولوجيا وهكذا ...

ولنا أن نصوغ هذه القوانين الثلاثة فيما يلى :

« كل شىء متأثر ومؤثر ، يمارس هذا التأثير أو التأثر خلال حركته الدائمة المستمرة التى لا تتوقف والتى تؤدى اثناءها كمية التأثير والتأثر الى أن تتغير خصائص الشىء نفسه بحيث تتغير هذه الخصائص تدريجيا وإن كنا

لا نحس ذلك التغير التدريجي غير الظاهر ، وعندما تصل كمية التأثر أو التأثير الى درجة تختلف باختلاف القوانين التي تحكم الشيء المتأثر يفقد هذا الشيء خصائصه ومظهره الاولين وتصبح له خصائص ومظهر آخر بحيث يختلف نوعيا عن الشيء الاول أي تلحقه خصائصه الجديدة « بنوع » من الاشياء غير النوع الاول الذي كان ينتمي اليه ، يصبح جامدا بعد أن كان سائلا ... تعمل هذه القوانين « معا » في كل لحظة وفي كل مكان فيكون الناتج تأثيرا فتأثرا فتحولا فتأثيرا فتأثرا فتحولا وهكذا حركة دائمة وتحول مستمر » .

4) **الديالكتيك أو الجدل** : عرفه لينين بأنه « تقابل النقيضان في ذات الشيء » أي في محتوى واحد . وأكد أن المعنى الدقيق للجدلية هو دراسة التناقضات داخل ذات جوهر الاشياء .

يؤدي التناقض هذا الى صراع والصراع يؤدي الى خلق شيء ثالث ، يختلف عنهما ، يمثل حركة تقدمية الى الامام . فاختلاف رأيين مثلا اثناء حوار يصل الى رأي ثالث متقدم عنهما . بدون تناقض لا صراع وبالتالي لا جدل :

وهكذا نصل الى النتيجة الحادية عشرة :

ـ الجدل هو عملية خلق وتجاوز وإضافة .

به تحل مشكلة خلقها « الماضي » ويتحقق به جديد في « المستقبل » .

وهكذا نصل الى النتيجة الثانية عشرة :

لا يتحقق هذا في الطبيعة (راجع دراستي في مجلة الفكر عن الديالكتيك والطبيعة ، العدد 6 و 8 من سنة 1977) .

كل ما فيها تحولات دائمة بحيث لا يظهر جديد تحت الشمس فيتحول الماء مثلا الى بخار ليعود الى ماء . فتحول القانون الكلي للطبيعة والتطور هو القانون الكلي للانسان .

التحول حركة دون إضافة والتطور حركة فاضافة .

يشير أصحاب « الاسس » الى أن المادة تخضع الى قانون أساسي عام : « لا تفنى ولا تتجدد ولكن تتحول » .

وهكذا ننتهي الى أهم نتيجة وهي الاخيرة :

إن الجدل قانون لتطور الانسان ولذا سمينا المنهج الجديد بعد التصحيح والاضافة « جدل الانسان » (د. عصمت سيد الدولة ، المرجع نفسه) .

(يتبع) **الحبيب المخ**

رسالة ...

شعر : اسماعيل عامود
(دمشق)

ـ 1 ـ

.. وكتبت لى ـ يوما :
تروين أخبارى
ودفين أسرارى
وعلاقة كانت كتذكار
تلغو بها أفواه سمارى

[فى الليل .. فى الظلمات .. سمارى
يتناقلون حديث غمرتنا

ودخانهم يعلو بلا نار
فى بيت خمار
ورؤوسهم ملأى بأطمار
وقديم أفكار ..
وكؤوسهم فضحت علاقتنا
كالشك فى أعماق كفار ..

وشبابنا الوثاب ـ يا ولهى ـ
يجتاح مجلسهم .. كاعصار ..

ـ 2 ـ

ـ إنى سأحرقهم
في ناري الهوجا...فيا ناري:
يا فكرة ولهى بأشعارى ..
زيدى عليهم.. نقمة.. كفرت ،
بالتافهين ، وراء أسوارى
يتجاوزون... جدار أسرارى
هم ، وزعوا للناس .. أخبارى
وصراخهم يعلو ، وحارتهم
مستنقع للسخف والعار ..؟!

ـ 3 ـ

يا حلوتى :
ازهار فرحتنا
نبتت على أعتاب نوار
فعبير اسحارى
وهديل أطيارى
سيظل يذكرها
ما دمت فى أعماق أفكارى ..

محاكمة

قصة : آمنة عرفاوي

« فتحت الجلسة ! المتهم عزرائيل عبد الله ! » .

وسرت فى الحاضرين همهمة واشرأبت الاعناق متطلعة الى المتهم وقد نطق بكلمة « حاضر » واحتل مكانه فى قفص الاتهام . العيــون كلها تلتهمه وقد ارتسمت فى بعضها علامات استفهام وفى بعضها علامــات تعجب . غيــر أن نقــاط استرســال ارتسمت فى كل العيــون كبيرهــا وصغيرهــا ، زرقائهــا وسودائها . إنها تنتظر ملء الفراغ الذى أعلنته نقاط الاسترسال ، ولما طال الصمت أو خيل للحاضرين أنه طال ، جعلت بعض العيون تلقى نظرات متلهفة الى المكان الرهيب الذى يتصدره رئيس المحكمة محاطا بعضويه . نظر الرئيس الى الحــاضرين ثم الى المتهم ثم الى الحــاضرين ثم الى المتهم ثم الى أوراق نسقت أمامه واستقر نظره عليها برهة ثم رفع يديه الى نظارتيه يصلــح وضعهمــا ، وكان سليما فأفسده ، فصارت النظارتان معلقتين فوق أنفه بشكــل ينــذر بالسقوط . وكأن أحد عضويه قد تنبأ بقرب وقوع الكارثة اذ أنه همس اليه ببعض الكلمات رفع الرئيس إثرها يديه الى النظارتين فأعادهما الى وضعهما الاول ثم ألقى نظرة أخيرة الى أوراقه ورفع عينيه الى المتهم ثم خاطبه بصوت أجش وقد كست وجهه مسحة من الشدة الوقورة :

ـ قل لى يا عزرائيل . ما هروبك من العدالة ؟ منذ قرون والعدالة تطاردك وأنت هارب مستمر فى جرائمك ولم نعثر عليك الا بأعجوبة فلماذا تهرب ؟

ـ لم أهرب يا سيادة الرئيس وانما كنت مشغولا . ولم أجد وقت فراغ إلا الآن . تصور يا سيدى أنى أعمل ليلا نهــارا وانتقــل من طــرف الارض الى طرفها الآخر لا أستقر فى مكان . تصور يا سيدى أن عمــلى يقتضى منى أن أتسلم فى الاربع وعشرين ساعة أكثر من أربع وعشرين ألف ! هــذا فــوق طــاقتى !

ـ ئتسلم أربع وعشرين ألف ماذا ؟

ـ روحا يا سيدى . إننى أكابد مشاق جمة فى تسلم الارواح . مشاق تختلف باختلاف أنواع البشر ، اليك مثلا . لا أعسـر على من تسلـم أرواح الاسرائيليين . إن الواحد منهم اذا رآنى قادما اليه يهـرع الى كـل وسائـل الدفاع والهجوم المتوفرة لديه ويصيح فى وجهى : « أنت فلسطينى ؟ فدائى ؟ لن تقتلنى أيها الوحش المدمر . سترى كيف سألقى بك فى غياهب السجون». وعبثا أحاول إقناعه بانى لست فدائيا وإنما انا عزرائيل الـوصى على أرواح الناس . ثم أقتلعها منه اقتلاعا ولا أكترث بصياحه . أما الامريكيون يا سيدى فان الفرد منهم اذا أتيته يعترف بأنى عزرائيل ويقول لى : « يا أيها السيد عزرائيل ! إنى لا أرى مانعا من ان أتركك تنفذ عملك فى حرية فنحن اناس نحترم الحرية ونقدر مزايا العمل غير أنى أطلب منك أن تمهلنى بعض الوقت ريثما أعمل على توسيع قطعة أرض هنا فى بلدى وضمان مصالحى فى الخارج » وعبثا أحاول اقناعه بانى لا أستطيع امهاله لحظة فاضطـر الى اقتلاعهـا منـه اقتلاعا مثل زميله الاسرائيلى . إلا أن الامر على غير ذلك مع الفلسطينيين . عندما أتقدم لتسلم روح فدائى فلسطينى يسامها بكل رضا وابتسام ويقول لى : « خذها فداء العزة والكرامة ، فى سبيل أرض فلسطين . ووددت لو كان لى منها عدد كبير حتى أسلمها الواحدة بعد الاخرى ولا أبخل على وطنى بواحدة منهـا » .

كأن رئيس المحكمة قد نسى مهمته ، إذ أنه أصبح ينصت الى كلام عزرائيل بفضول ظاهر وقد أخذ بما يسمع ، ثم تمالك وقال بحدة :

ـ لا تحاول أن تستميلنى بتمجيدك للفدائيين ، لئن كنت أنا مسلما فاعلم أن هذه المحكمة دولية وأنك فى مقر الامم المتحدة حيث احترام مبدأ المساواة بين البشر على اختلاف أجناسهم وأديانهم .

وقال عزرائيل وهو ينظر الى الحاضرين نظرات مذهولة :

ـ العفو يا سيدى . لقد تحولت الى كل انحاء الارض ولم أعثر على المساواة الا فى هذا المكان . شيء جميل حقا !

ـ لم نطلب رأيك فى هذا الامر . أجب عن صلب الموضوع : أنت حسبما يقتضيه أحد فصول الاعلان عن حقوق الانسان الصادر عن الامـم المتحـدة ، مجرم . لأنك تحرم الانسان من حقه فى الحياة . فما جوابك عن هذه التهمة ؟

وبدت على عزرائيل دلائل الحيرة والتفت حوله باحثا عن المحامى . لكن نسى أن كل المحامين رفضوا الدفاع عنه . والرئيس يريد منه الكلام ...

ــ يا سيادة الرئيس ، إنى أقوم بواجبى ؟

ــ أى واجب هذا الذى يحرم الانسان من حقه فى الحياة ؟

كيف تسمح لنفسك باتخاذ قرارات جائرة والاعتداء على غيرك ، لا تحترم فى ذلك القوانين الدولية . ألا تعلم أن عهد تغلب القوى على الضعيف قد انتهى ؟ ألا تعلم أننا الآن كلنا فى نظر القانون سواء ؟ لقد ولى عهد الجور والطغيان وحل عهد التفاهم والشورى ؟ أتدرى ما معنى الشورى ؟ ما معنى العدل ؟ ما معنى المساواة ؟ أى حق استعملته أيها القوى المتجبر لاغتصاب أرواح البشر ؟ أجب ! أجبنى أى حق استعملته أيها القوى المتجبر ؟

ــ إنى أستعمل حق الڤيتو يا سيدى !

آمنة عرفاوى

كل عام وأنتم بخير

بمناسبة حلول السنة الميلادية 1979 تتقدم أسرة مجلة « الفكر » لقرائها الأعزاء بأخلص التمنيات وأصدق التهانى

علم السكان أو العمران البشري
مالتوس أو ابن خلدون

اعداد : الديوان القومي
للتنظيم العائلي والعمران البشري

ان موضوع النمو السكاني يشكل اليوم اهتماما أساسيا من الاهتمامات التي تواجه البشرية ، وهو من حيث أبعاده وانعكاساته المتعددة والمتنوعة يطبع بطابعه الخاص كل المحاولات لطرح مشكل التنمية الاقتصادية والاجتماعية خاصة اذا تعلق ذلك بدول العالم الثالث. والواقع أن هذا الموضوع،وان اكتسى أهمية متزايدة خلال العشرية الفارطة ، ليس بالموضوع الجديد ، ذلك أن المجتمع البشري طرق منذ أول عهده بالتفكير المسائل المتعلقة بتطور عدد سكانه وحاول البحث عن القوانين والقواعد التي تسوس هذا التطور وتتحكم فيه ونجد عند أغلب الثقافات نماذج لهذه المساعي الرامية الى معرفة اسرار العمران البشري وهي محاولات كثيرا ما طغت عليها المسحة الماورائية أو الدينية . أن فكرة العمران البشري تبلورت واتضحت مع تطور القرون وبروز عدة عوامل ثقافية وعلمية ساعدت على الزيادة في اعطاء هذا المفهوم بعده العلمي التاريخي .

مالتوس ونشأة العمران البشرى

ان الحديث عن العمران البشري ومشاكل الزيادة في عدد السكان لا يكاد يطرح اليوم دون أن يقع ذكر ما لتوس الذى يعتبر باعث هذا العلم الجديد . ان ريادة مالتوس لا تقبل منازعة فهو الذى وضع أسس علم السكان وألح في مؤلفاته على العلاقة بين زيادة عدد سكان الارض ونمو امكاناتها في توفير حظوظ الحياة للانسان ولقد كانت مبادىء مالتوس في حقيقة أمرها منتمية لما يمكن ان نسميه اليوم : ثقافة مضادة . إذ أن جملة الافكار التى طرحتها كتبه كانت تعارض معارضة أساسية الجو العام السائد آنذاك في بريطانيا وهو جو

ملؤه التفاؤل بفتوحات العهد الصناعى والافاق العريضة التى ستفتحها الثورة العلمية فى وجه الانسان من سيطرة مطلقة على الطبيعة وتنمية غير منتهية لثروات الارض لما فيه رخاء البشرية وسعادتها • فى هذا المناخ الفكرى والاجتماعى برزت أفكار مالتوس تنذر بالبؤس والخصاصة ونهاية الحلم الصناعى وتبعا لذلك كانت الحلول التى اقترحها مالتوس حلولا اخلاقية تدعو الى نوع من الزهد فى الحياة فى اطار مجتمع اخلاقى يميل الى التحجر • وكما كان منتظرا لقى مالتوس ردود فعل عنيفة لدى مجتمع سفهت احلامه وطعن فى أمله وقد نعت قولدوين نظرية مالتوس بأنها « شيطان أسود مخيف ، مستعد دوما لخنق الامال البشرية » ان أول محاولة جادة فى أوربا لوضع أسس علم السكان وتدعيم الوعى بمشكل زيادة عدد السكان لم تنشأ فى ظروف ثقافية مذهبية تؤهلها لمسايرة النزعة العامة للمجتمع بل إن هذه الفكرة الجديدة

مذهبية تؤهلها لمسايرة النزعة العامة للمجتمع بل إن هذه الفكرة الجديدة

قرنين •

ابن خلدون والعمران البشرى :

أما فى الثقافة العربية الاسلامية فان ابن خلدون كان أول من طرق موضوع العمران البشرى وقد كان فى هذا المجال تماما كما كان شأنه فى كافة المسائل التى تناولها بالبحث والدراسة طريفا رائدا ، فهو دارس تاريخ الا ان هذا العلم كما يقول هو نفسه : « انه فى ظاهره لا يزيد على أخبار عن الايام والدول •••• وفى باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها عميق • » وبهذه النظرة الجديدة للتاريخ أتت بمعطيات جديدة وبكثير من الاكتشافات فى مجال البحث وأساليبه ، ويقول الاستاذ احمد خالد فى هذا الصدد فى مقال نشرته له مجلة الفكر فى سنتها الثامنة : « وأطرف ما فطن اليه ابن خلدون فى عصره ضبطه القوانين الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الكبرى ولم يتعصب فى ضبطها لفكرة أو لعقيدة » وقد كان لهذه الموضوعية أن دفعت الكثير من المفكرين ومؤرخى الفكر يتبنون ابن خلدون ويجعلونه وضعيا أو ماركسيا قبل ظهور هذين المذهبين • لقد نظر ابن خلدون فى العمران البشرى واسبابه وقواعده وبحث العلاقة القائمة بين العمران البشرى والحياة الاقتصادية فكتب : « واعلم أنه اذا فقدت الاعمال او قلت بانتقاص العمران تأذن الله برفع الكسب الا ترى ان الامصار القليلة الساكن كيف يقل الرزق والكسب فيها او يفقد لقلة الاعمال الانسانية وكذلك الامصار التى يكون عمرانها أكثر يكون اهلها أوسع

احوالا وأشد رفاهية كما قدمناه قبل ومن هذا الباب تقول العامة فى البلاد اذا تناقص عمرانها انها قد ذهب رزقها • »

ان هذا الموقف ليعود أساسا الى عدة أسباب تاريخية وحضارية توضح أبعاده وغاياته تماما كما كان الامر بالنسبة لمالتوس رد فعل أمام وضع معين فان موقف ابن خلدون جاء نتيجة لحالة سياسة ومذهبية خلقت نوعا من الشعور بالخوف إزاء أنقراض الاستقرار وكساد الحياة الاقتصادية وانعدام الامن وتفشى الاوبئة والامراض • وفى مثل هذه الحالات غالبا ما ينشأ تعلق مفرط بالحياة وتواصل النسل وامتداده •

العمران البشرى اليوم :

نظرتان متباينتان للمشكل السكانى وهما تجسمان بوضوح ما آل اليه هذا الموضوع اليوم من تنازع ونقاش وتطرف فى طرحه والبحث عن حله، ذلك ان المسالة السكانية انضاف اليها موضوع آخر ذو بال وهو مشكل التخلف الاقتصادى فلا يمكن التحدث عن التنمية الاقتصادية والاجتماعية وهى أوكد واجبات القرن العشرين ، بدون بيان مالها من علاقة وثيقة ، جدلية حية بالعمران البشرى بل ان هنالك من لا يضع هذا المشكل الانمائى الا بالمقابلة بالتطور السكانى وتنوعت الاراء وتباينت فهنالك من يؤيد الحلول التى اقترحها مالتوس والداعية للحد من النسل للمحافظة على مستوى الحياة وتوفير حظوظ الرفاهية وهنالك من يرى ان الحل يكمن فى الاسراع فى عملية التنمية الاقتصادية ويعتقد ان العامل البشرى أساسى فى معركة النهوض الاقتصادى والاجتماعى • ان هذين الموقفين يعبران فى واقع الامر عن نظرة تجزيئية للموضوع فلا يمكن طرق أحد المشكلين دون اعتبار الاخر اذ أن الترابط بينهما ترابط عضوى حيوى ولقد اظهرت التجارب والممارسات أن كل سياسة اعتمدت على تحديد النسل بدون النظر فى توفير امكانات التطور الاقتصادى وظروف التقدم الاجتماعى باءت بالفشل كما أن اغلب المحاولات الانمائية التى لم تجابه المشكل السكانى بحزم وجد تعطلت وتعثرت ولم تبلغ غاياتها •

ان المشكل الانمائى متعدد الاوجه والابعاد ولا يمكن تجزئته الى قطاعات اقتصادية واجتماعية وثقافية ، مستقلة عن بعضها والحال ان كل هذه المظاهر للجهد الشرى متكاملة متناسقة • فالموضوع السكانى هو أساسا موضوع

الطائران والحلم الابيض

تاليف : محمد على الرباوى
مصطفى النجار

تعليق : سمر روحى الفيصل

يؤمن المثقفون العرب أن أولى خطوات الوحدة العربية وأكثرها رسوخا فى الارض،هى الوحدة الثقافية ذلك ان الفكر يعكس اهتمامات الانسان وطموحاته وآماله ، كما يعكس وجدانه الجمعى فى الوقت نفسه . ومن البديهى ان اهتمامات العرب ، مهما تعرق فى خصوصية كل قطر على حدة واحدة ، أو قل انها متقاربة تقاربا شديدا ، تبعا لتقارب البيئات والمشكلات وطرائق التفكير ، تبعا للاصل الواحد من حيث التاريخ واللغة والدين مرورا بأمان مستقبلية واحدة .

وعلى الرغم من الحواجز الثقافية المضروبة أمام المثقف العربى ، تلك التى تمنعه من التواصل الحقيقى ، فان المثقفين العرب ما يزالون يحاولون اختراق الجدر الصم لتحقيق خطوات صغيرة على طريق الوحدة الثقافية .

لعل هذا هو السبب الذى ــ يجعلنا نهلل للمجموعة الشعرية الصادرة حديثا بعنوان (الطائران والحلم الابيض) لانها تحاول تقديم صوتين أحدهما من سورية وهو الشاعر الحلبى مصطفى النجار والثانى من المغرب وهو الشاعر

محمد علي الرباوي . ولقد كانت طريقة الشاعرين في تجاوز الحواجز الثقافية ذكية . اذ طبعا المجموعة في حلب ووجدة وبذلك اختصرا الزمن ، وقفزا فوق العقبات .

تضم المجموعة سبع عشرة قصيدة ، منها تسع قصائد لمصطفى النجار ، وثماني قصائد لمحمد علي الرباوي (الطبعة الاولى السورية) ، غير ان الاتفاق على الاشتراك في مجموعة واحدة لم يقتصر على أمور الطباعة وما الى ذلك ، وانما كان هناك ـ فيما يخيل الى ـ اتفاق على اختيار قصائد ذات دلالة معينة ، بحيث تعبر عن اهتمامات واحدة للطرفين ، مع بقاء الصوت الخاص لكل منهما ٠

وعلى هذا النحو يلمح المرء اشتراك القصائد في ثنائيه الحب والقهر ، ذلك ان الحبيبة والعزيزة والانثى لا تعنى المرأة ـ الجسد ، وانما تعنى المرأة ـ الرمز رمز القهر والعذاب والخوف وانعدام التواصل مع العالم ، كما تعنى الفرح والامن والاستقرار في الوقت نفسه ان لفظة « المرأة » من أكثر الالفاظ المرموزة في الشعر العربي الحديث ، لان الشعراء ينظرون الى التواصل معها على انها ميزان الحياة المعاصرة ، فان مالت الكفة ذات اليمين راح الشاعر يغنى الفرح القادم والخصب والامل ، وان مالت ذات الشمال راح الشاعر ينكر الخوف ، وانعدام حسن الامن والظلم والاستبداد والضياع ، ليس غريبا اذن أن تنتظم قصائد النجار والرباوي في خيط واحد ، فيكون غناؤهما للمرأة تعبيرا عما يعتمل في نفسيهما ٠

ولقد يكون حسنا لو راح المرء يلتفت الى تكرار لفظة « الغناء » ومشتقاتها في قصائد المجموعة كقصيدة « الكلمة الاخيرة لاسير » للشاعر مصطفى النجار ، وقصيدة « مذكرات فلاح أتعبته القفة » للشاعر محمد علي الرباوي . غير أنه من الواجب الالتفات الى أن هذه اللفظة يكثر ورودها عند النجار ، بحيث نلمحها في أكثر قصائده ، مما يشير الى الصوت التفاؤلي له وارتفاع نغمته على نغمة فرح صديقه الرباوي ٠

يضاف الى ذلك اشتراك الشاعرين في استخدام أداة توصيلية واحدة هي طريقة المونولوج ، وهي تختلف في استخدامها هنا عن القصة والرواية ٠ انها صوت مسموع يعلنه الشاعر عاليا ويستخدم له ضمير المتكلم ، كما في قصيدة « الكلمة الاخيرة لاسير » للنجار :

أدخلوني القوقعه

ها . . دخلت

«ربما كان يغنى

ربما كان يسب ؟»

على نحو قريب من استخدام النجار للمونولوج بروح الشاعـر الـربـاوى يستخدمه كما فى قصيدة « الحلم الابيض » :

أحلم يا عزيزتى بغرفة وسط سنابل القمر

فراشها الوثير من خيط غلائل الزهر .

هناك أداة أخرى يستفيد منها الشاعران فى قصيدتين ، هى استخدام الرمز التاريخى واسقاط الماضى على الحاضر ، كما فى قصيدة النجار « أبحث عن قيس آخر » وقصيدة الرباوى « حلم فارس من بنى عبس »

يحس المرء أن صوت الرباوى الشعرى ملىء بنعمة الحزن الـداخلى ، بحيث يتعاظم انعكاسه على الالفاظ المنتقاة للتعبير ، فتروح تملىء بزخـم وجـدانى ، وتنعكس على خيال يطرحها صورا محسوسة مباشرة ، ولئن كان الوجدان صفة يمتدح الشاعر بها ، فان ضعف الخيال ، وبالتالى قرب تناول الصور يضعف من تدفق هذا الزخم الوجدانى . ونحن لا نعتبر الخيال كل شىء ، ولكننا فى الوقت نفسه لا ننكر دوره فى الارتفاع ، وسوف يلحظ القارىء اثر ضعف الخيال فى نفسها من حيث ضعفها عن أداء المعنى كاملا ومن حيث موسيقـيتـها فـى أحايين أخرى كما يلحظ ان قصيدة (الحائط الطينى) ذات مستوى رفـيـع يختلف عن القصائد السبع الباقيات للشاعر لان الخيال ارتفع الى درجة السند الحقيقى للوجدان فخدمه دون أن يسىء اليه .

الحقيقة أننا لا نستطيع تفصيل الحديث عن هذه المجموعة اكثر من هذا ، ولكننا ما نفتأ نلحظ فى هذه النقرات السريعة تطورا فى شعر مصطفى النجار بحيث امتلا صوته فرحا ، أو قل انه بدأ يقيم معادلة بين القهر الذى كنا نحسه فى مجموعاته السابقة ، وبين الفرح المفقود ، وانعدام حسن الامن لديه . وقد يشير ذلك الى تساوى الكفتين ، كما يشير الى أن الاحتجاج على القهر لا ينفع ان لم يدغدغه أمل فى فرح مستقبلى .

ثقافى فى اوسع مفاهيم الثقافة من حيث أنها مجموع تصورات ومواقف وسلوك . فالانسان الذى لا يعى كافة أوجه المشكل الديمغرافى ولا يشعر بالتالى بما تمليه عليه مسؤوليته ازاء ابنائه واسرته ينتمى الى اطار ثقافى معين قل وندر أن تتفتح فيه طاقات الانسان فى الحياة والخلق والابداع ولذلك يتضح ان الدعوة لارساء قواعد سياسة سكانية ولاهم مكوناتها واداة تحقيقها وهو التنظيم العائلى ، لا تستجيب فقط لمتطلبات التنمية الاقتصادية والتقدم الاجتماعى بل هى تندرج فى اطار ارادة الرقى بنوعية الانسان وخلق نمط ثقافى جديد يبشر بالحياة ويدعو لها ولعل ابلغ مثل لذلك فى الممارسة اليومية لعملية اعادة بناء الاسرة التونسية حيث يكتشف الانسان وهو يتحرر من ضغوط الطبيعة واجحافها ابعادا جديدة لانسانيته ولذاته ٠

الاختيار بين مالتوس وابن خلدون هو فى الواقع وضع تجزيئى للمشكل والمشكل أعم وأشمل فالواجب اليوم هو اثراء ما تقدم وتجاوزه ٠ وان فى الموضوع السكانى محكاجديدا الصدق عزمنا فهذا التحدى المهول الذى تواجهه الامة العربية اليوم سيكون له بعيد الاثر فى مصيرها فاما أن تجابهه بحزم وجدية فيمكنها أن تروض قدرها واما ان تتجاهله فى موقف نفى جبان فتبتعد اكثر فأكثر عن حركة التاريخ والحياة ٠

تقرؤون فى الاعداد القادمة

عبد الحميد بن هدوقة روائي عربي من الجزائر

عن مجلة : الموقف العربي
بقلم : أحمد محمد عطية

عبد الحميد بن هدوقة روائي جزائري معاصر يكتب باللغة العربية ويسهم ، مع جيل التعريب ، في ابداع الرواية الجزائرية ، وفي استرداد الادب الجزائري الحديث لوجهه العربي ولغته العربية وأصالته القومية .

هذا الجيل هو الامتداد العربي لجيل الرواد الذين ولدت الرواية الجزائرية على ايديهم مكتملة النمو والتكوين، بالرغم من حداثتها بالقياس الى الشعر الجزائري الحديث السابق عليها في الظهور والانتشار . واقترن ظهور الرواية الجزائرية ، في أواخر الاربعينيات وأوائل الخمسينيات ، بظهور مقدمات الثورة الجزائرية .

ويرجع اكتمال الرواية الجزائرية ونضجها ، شكلا ومضمونا ، الى تأثرها بفن الرواية الفرنسية العريق . لذا اصدرت اعمالها الاولى بالفرنسية ، نتيجة لسيطرة اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية على مثقفي الجزائر ومفكريها وأدبائها . كما تعود ايضا الى احتدام عوامل الصراع المختلفة داخل المجتمع الجزائري ، بين الجزائريين ومستعمريهم الفرنسيين ، وبين الثقافتين العربية والفرنسية ، وبين الطبقات الشعبية ، ومن ابناء الفلاحين والعمال والطبقة الوسطى ، وابناء الطبقات العليا من كبار الملاك والبورجوازيين وعملاء الاستعمار الفرنسي . فكشف الرواية الجزائرية كل عوامل التفجير في المجتمع الجزائري المستعمر . وعبرت عن دائرة الظلم الاجتماعي والسياسي لتشمل غالبية الشعب الجزائري . كما بشرت بالثورة واسهمت في اشعال معارك التحرير الوطنية ضد المستعمرين وعملائهم ونظامهم .

هكذا جاءت الرواية الجزائرية لجيل الرواد مكتوبة بأقلام خبيرة بالفن الروائي وبمشكلات المجتمع الجزائري ، غير انها صدرت باللغة الفرنسية ، مثل ثلاثية محمد ديب الروائية « الدار الكبيرة » « النول » و « الحريق » ، وروايات « الارض والدم » لمولود فرعون و « الهضبة المنسية » لمولود عمرى ، وروايات مالك حداد وكاتب ياسين وغيرها من الروايات الجزائرية الفرنسية.

ومع ان الادب الجزائرى المكتوب باللغة الفرنسية هو أدب وطنى يعبر عن ضمير الشعب الجزائرى ومشكلاته وتطلعاته وعن معارك التحرير الوطنى والاجتماعى . الا ان الاديب الجزائرى ظل يشكو من غربته فى اللغة الفرنسية ومن عجزه عن التعبير بلسانه العربى ولغته القومية . عبر عن ذلك الروائى والشاعر الجزائرى الراحل مالك حداد بقوله : « انا ارطن ولا أتكلم ، ان فى لغتى لكنة ، اننى معقود اللسان .. أنا لا أغنى .. فلو كنت أعرف الغناء لقلت شعرا عربيا .. لقد شاء الاستعمار ان يكون فى لسانى آفة ، أن أكون معقود اللسان .. » وقال كاتب ياسين : « انا منفى فى اللغة الفرنسية ! » وتحدثت الاديبة الجزائرية « آسيا جبار » عن مشكلة التعبير بلغة المستعمر عن حياة وعادات المرأة الجزائرية قائلة انها « تجد نفسها أمام مشكلة ترجمة عواطفها وأفكارها العربية الى اللغة الفرنسية ، وان هناك شيئا ما ينقص الصورة مع ذلك . »

فقد أراد الاستعمار الفرنسى احتواء الثقافة العربية وضرب القومية العربية فى الجزائر ، بالقضاء على اللغة العربية ، ومحو عروبة الجزائر ، وتحويلها الى مستعمرة فرنسية تابعة له اقتصاديا وفكريا . غير ان جهوده لم تحقق نجاحا يذكر الا بين الاقلية من سكان المدن الجزائرية . بينما ظل الريف الجزائرى، حيث يعيش الغالبية العظمى من الجزائريين ، معقل الثورة وحصن العروبة . وقد قاوم الشعب الجزائرى هذه السياسة الاستعمارية وتحداها ، بالالتجاء الى ينابيع التراث العربى ، والتمسك بالقومية العربية واللغة العربية . وظلت معركة التعريب بالجزائر جزء لايتجزأ من معارك الثورة الجزائرية .

وعبد الحميد بن هدوقة من ابناء الريف الجزائرى ، فهو من مواليد مدينة « المنصورة » التابعة لولاية « سطيف » الجزائرية ، سنة 1925 وتزخر رواياته بالخبرة والمعرفة بالحياة والناس والطبيعة فى الريف الجزائرى . ومعروف ان الريف الجزائرى ظل معقل العروبة وحصن الثقافة القومية واللغة العربية ، وانه افشل كل محاولات الغزو الثقافى التى وجهها الاستعمار الفرنسى للقضاء

على عروبة الشعب الجزائرى ، ومحو قوميته العربية ، وثقافته العربية ، ولغته العربية ، واستبدالها بقومية المستعمر وثقافته ولغته .

وبعد ان حققت الثورة الجزائرية انتصارها الحاسم ، وحررت الجزائر وحققت استقلالها ، تبقت من معارك الثورة الجزائرية ، معركة التعريب التى توليها الدولة كل عنايتها ، لمحو آخر آثار الغزو الثقافى الاستعمارى . ومن هنا جاء دور الادب العربى الجزائرى من اجل التعبير عن ضمير الشعب العربى الجزائرى بلغته العربية ، اللغة القومية الام التى تعيد الجزائر للالتحام بالوطن العربى والثقافة العربية والقومية العربية . لهذا كله نتطلع الى الادب العربى الجزائرى الحديث ونوليه كل اهتمامنا . وقد تناولت فى كتابى **«البطل الثورى فى الرواية العربية الحديثة»** نموذجين من الرواية الجزائرية . الاول من نتاج جيل الرواد المكتوب بالفرنسية ، ثلاثية محمد ديب الروائية . والثانى من انتاج جيل التعريب المكتوب باللغة العربية ، رواية « اللاز » للطاهر وطار . وفى هذه الدراسة نتناول درة اعمال الروائى العربى عبد الحميد بن هدوقة ، روايته العربية « ريح الجنوب » .

كتب عبد الحميد بن هدوقة عددا من الروايات العربية ، غير ان أشهرها وأهمها روايته « ريح الجنوب » التى تحتل مكانة خاصة فى أدبه الروائى ، فقد طبعت فى ثلاث طبعات ، ووصفتها الشركة الوطنية للنشر (الجزائرية) بأنها « قصة لها مكانتها المرموقة فى الادب الجزائرى الحديث » .

تصور رواية « ريح الجنوب » الجزائر الجديدة بعد الاستقلال ، بعد ان استنفدت الرواية الجزائرية موضوع الثورة الجزائرية وحرب التحرير الوطنية . وتطرح رواية عبد الحميد بن هدوقة ، مشكلات المجتمع الريفى الجزائرى بعد انتهاء الثورة وتحقيق الاستقلال ، وتصور الحياة والناس والطبيعة والآلام والآمال فى الريف الجزائرى بأدق تفاصيلها ، ، مما يوحى بالخبرات العميقة التى اكتسبها عبد الحميد بن هدوقة ابن الريف الجزائرى من هذا الريف .

وتجمع الرواية فى معمارها الفنى بين الرد التقليدى والتصوير الخارجى والاستبطان والتحليل النفسى والنفاذ الى اعماق الشخصيات ، وتثرى الزمن الروائى بالمزج بين الماضى والحاضر والايمان بالمستقبل وباستخدام تيار الوعى فى اضاءة ماضى الشخصيات والمجتمع ، وبتنوع زوايا الرؤية والمشاهد

البصرية والصور السمعية . وقد عنى الروائى برسم الشخصيات الثانوية فى الرواية قدر عنايته بشخصياتها الرئيسية . وتمكن من ابداع الروابط بين شخصيات الرواية الكثيرة ، بحيث تشابكت مع احداثها ومع بعضها البعض بمهارة ودون افتعال .

وتطرح الرواية أهم قضايا المجتمع الريفى فى الجزائر ، من خلال منظور فكرى تقدمى ، مثل الارض ، المرأة الجزائرية ، صراع الاجيال والافكار والمفاهيم ، وتخلف الحياة والناس فى الريف الجزائرى . ونحن لا نطالع هذه القضايا بشكل مباشر ، ولكن من خلال شخصيات حية وواقع مصور بثراء وعين فنان خبير بموضوعه وقضاياه وشخصياته ، متمكن من ادائه الفنى .

فالشخصيات ، فى الرواية ، مرسومة بدقة وتميز ، وتكاد ان تتدفق حياة وحيوية . الشخصيات الرئيسية ، المؤثرة فى أحداث الرواية وفى شخصياتها الاخرى هى : « عابد بن القاضى » ، من كبار ملاك الاراضى ، وهو قلق بسبب خوفه من اقتراب تطبيق الاصلاح الزراعى شخصية من الماضى الاستعمارى فقد تعاون مع الفرنسيين خفية . وفى مقابلة توجد شخصية « مالك » ، مناضل حرب التحرير ، ومسؤول حزب التحرير فى الناحية ، الوحيد الذى رفض مغادرة القرية بعد انتهاء الثورة وتحقيق الاستقلال . كان على وشك الزواج من «زليخة» ابنة «عابد بن القاضى» . غير انها قتلت خطأ ، خلال الثورة ، فى عملية نسف قطار قام بها مالك ، شخصية من الحاضر الثورى . « نفيسة » ، بطلة الرواية ، ابنة «عابد بن القاضى» ، وابنة المستقبل ايضا ، من بنات الجيل الجزائرى الجديد ، تتلقى تعليمها فى مدينة الجزائر ، وتقضى عطلتها سجينة بيت أبيها الريفى ، تقرأ وتتطلع الى المستقبل وتفكر فى وضع المرأة الجزائرية المهين فى الريف . تمثل الاستقلال فى الشخصية والثقافة والآمال ، ومن ثم تعارض والديها . وترفض الزواج السياسى ، الذى يعمل أبوها على عقده بينها وبين مالك المسؤول السياسى فى القرية حتى يحقق بواسطته حماية أرضه من قوانين الاصلاح الزراعى .

أما الشخصيات الثانوية فأهمها شخصيتان تعيشان على هامش الحياة فى القرية ولكنهما مزيدتان واصليتان ومتميزتان تماما : « شخصية الخالة رحمة » وهى فنانة شعبية تلقائية عجوز تصنع الاوانى الفخارية وتبدع الاعمال الفنية من خلالها . وشخصية الراعى «رابح» عازف الناى الفنان المعتد بشخصيته ، الشاب الريفى البسيط الذى يتمثل فيه كل عنفوان الطبيعة وبساطة الريف.

بالاضافة الى شخصيات « خيرة » أم « نفيسة » زوجة « عابد بن القاضى » . و « الطاهر » المدرس وصديق المناضل « مالك » وصاحب المقهى الوحيد فى القرية « الحاج قويدر » ، والشخصيات الكثيرة العابرة فى الرواية ، مثل رجال الدين والفلاحين وبعض نساء القرية واطفالها ايضا . وتستحق كل شخصية من شخصيات الرواية الرئيسية دراسة خاصة بها تتناول بناء الشخصية وتطورها وفكرها وعلاقاتها بالشخصيات الاخرى واسهامها فى البناء الروائى ، غير ان المجال لا يتسع لهذا كله .

تقع أحداث الرواية وتتحرك شخصياتها داخل قرية جبلية من قرى الريف الجزائرى ، وتتركز حول موضوع الزواج السياسى الذى يعتزم به المالك الكبير « عابد بن القاضى » تزويج ابنته « نفيسة » من « مالك » المسؤول السياسى فى الناحية ، حماية لارضه من التوزيع على الفلاحين ، ورفض الاخيرة لهذا الزواج وهروبها من بيت ابيها ، وتنتهى الرواية بجريمة قتل مزدوجة تنهى حياة الاب « عابد بن القاضى » والراعى « رابح » هكذا يموت اثنان من رجال الماضى والحاضر ، رمز للاقطاع والتخلف ، بينما تعيش « نفيسة » الشابة المثقفة ابنة المستقبل . وتتفجر هذه الاحداث الرئيسية باحداث فرعية تتشابك مع ذكريات الماضى وامال المستقبل .

قال أحد سكان القرية : « ان جيلنا لا يقدر على فهم هذا الجيل .. » (ص 263) فعبر بذلك عن قضية الصراع بين الاجيال والافكار والمفاهيم المختلفة وهو صراع بين الماضى والمستقبل عبر مشكلات الحاضر اليومية والفكرية والاجتماعية . تطرحه الرواية من خلال تشابك القضايا والهموم العامة والخاصة لتلك الشخصيات ، وتتجسد فى وقائع يومية تنمو وتتطور وتتعقد حتى تصل الى ذروتها فتحل .

تجسد « نفيسة » ، البطلة الشابة ، عدة قضايا وتجمع خيوطها بين يديها ، فهى تمثل الجيل الجديد من المرأة الجزائرية المثقفة الرافضة لوضع المرأة الجزائرية المهين فى الريف الجزائرى . وهى تمثل الفكر الجديد والمستقبل فى كثير من آرائها التى تتطلع بها الى تكوين انسان جزائرى جديد محرر من التقاليد البالية المعوقة لقدرات الانسان ونشاطه . وحولها تدور قضية الزواج السياسى ، الذى يفرضه عليها ولدها المالك الكبير « عابد بن القاضى » كى يشترى بها ولاء المسؤول السياسى « مالك » ويفتدى بها ارضه ويحميها من تطبيق قوانين الاصلاح الزراعى .

وتدل صياغة تلك الشخصيات على مهارة الروائى فى تقديمها كشخصيات حية متحركة متنوعة تتطور مواقفها مع الاحداث ، ولبست شخصيات جامدة على موقف واحد ، واتبع الروائى الواقعية والتحليل النفسى فى خلق هذه الشخصيات ، وتطويرها ، وتعميقها ، ودفعها الى الالتقاء بسائر الشخصيات الاخرى فى الرواية . كما اغنى الروائى شخصياته باستخدام تيار الوعى وانسانيته لكشف ماضى الشخصيات ومراحل تطوير المجتمع الجزائرى ، من أحداث الحرب العالمية الثانية الى الاستقلال ، مرورا بوقائع حرب التحرير الجزائرية التى طبعت بصماتها على الرواية الجزائرية كلها . يضاف الى ذلك ان خبرة الروائى بالفن السينمائى ، كرئيس لمؤسسة السينما الجزائرية مكنته من استخدام أساليب القطع والمونتاج والمزج بين الازمنة والتنقل بينها . وقد برع الروائى فى توظيف الطبيعة وريح الجنوب الحارة وتنوع زوايا الرؤية والمشاهد البصرية والصور السمعية فى تناغم بين الطبيعة والشخصيات واحداث الرواية . فعندما تحاصر « نفيسة » بالتقاليد القديمة ، التى تجبرها على ترك الدراسة فى مدينة الجزائر والزواج وفقا لمشيئة الاب ، تثور ريح الجنوب المتربة الخانقة وتشعر البطلة ايضا بالاختناق الداخلى . هكذا تمتزج أزمة البطلة « نفيسة » الخاصة بالازمات العامة وتتشابك المشكلات الخاصة بالقضايا العامة والفردية بالاجتماعية ، وتجسد مأساة التخلف وصراع الاجيال فى مأساة « نفيسة » التى يجبرها أبوها على الزواج لمصلحته الخاصة فيرتبط التخلف بالرجعية .

وعندما يقول أحد سكان القرية ، من رجال الجيل القديم ، « ان هذا الجيل لا نفهمه نحن .. » (ص 263) فانه يشير الى حتمية الصدام بين الجيلين القديم والجديد . وهو صدام نتيجته فوز مفاهيم الجيل الجديد ، جيل المستقبل الجزائرى ، فالالتقاء بين الجيلين مستحيل ، كما صورته الرواية ، لانه لا التقاء بين من ينظر الى الماضى ومن ينظر الى المستقبل . فالمدرس الشاب « الطاهر » لم يكن أبدا ينوى الحديث فى هذا الموضوع مع رجل عيناه تنظران الى الماضى فان نظرتا الى المستقبل فانما كنهاية . (ص 80) لذلك انتهى الحديث بينه وبين المالك الكبير « عابد بن القاضى » بهذه العبارة القاطعة للطاهر : « انا فى واد وانت فى آخر يا عمى الحاج ! » (ص 81) .

هذا الصراع بين الاجيال والمفاهيم الذى تواكبه الطبيعة بواسطة « ريح الجنوب » الحارة المتربة الخانقة التى امتزجت باختناق نفيسة الداخلى من جراء اختلاف الاجيال والمفاهيم ، هذا الصراع الذى أراد به الروائى ان يصور

الجزائر الجديدة وهى تتخلق فى مخاضها الجديد . وانقل هنا فقرة طويلة تعبر عن أزمة نفيسة وأزمة الجيل الجديد وحركة الطبيعة : « وكانت تحس باختناق شديد ، مما جعلها تتلمس عنقها بصورة آلية ، لتتعرف على آثار ذلك فيه ! لكن الاختناق كان داخليا يشبه ما تبصره عيناها من غبار فى ذلك الحين أحدثته زوابع مفاجئة . لم تكن تفكر ، كانت حائرة . وحيرتها أكبر من أن تعود الى سبب واحد . كانت حيرة جافة ، صارمة ، تعبر عن عجزها أمام هذه الغيبيات الكثيرة الخارجية التى تخط للناس مصائر لا مناص لهم من حياتها ، سواء لاءمت آمالها أم حطمتها . أبوها يقرر منعها من العودة الى الجزائر ، من مواصلة الدراسة . يقرر تزويجها ، يختار هو من تتزوج به . أمها ترى ان سنها بلغت حدا لم يعد يسمح لها الا بالانزواء فى حجرة مظلمة !. تقاليد بدائية تقيد سلوكها .. ماذا عساها ان تفعل وحدها لمواجهة كل ذلك ؟ هل تثور ؟ ولكن أية ثورة ، وفى أى اتجاه ؟ انها لا تعرف احدا فى القرية . وهب انها عرفت ماذا يجدى ذلك ؟ فلا فرع هناك للمنظمة النسائية ولا لشبيبة الحزب ولا غيرهما . لكنها مع ذلك لا بد ان تثور ، ان تعارض كل سيطرة خارجية مهما كانت ثورتها وحدها التى تستطيع تحديد الاتجاه والطريق . (ص 87 و 88) هكذا توصلت نفيسة الى قرارها برفض الزواج المفروض عليها وباصرارها على العودة الى مدينة الجزائر لمواصلة الدراسة هذا القرار الذى قادها الى الهروب والاصابة بلدغة ثعبان فى طريقها الشاق ، عبر الجبال والاشواك ، الى محطة القطارات ، حيث تواجه خطر الموت ، فللطبيعة دور هام فى تعقيد احداث الرواية ، حتى ينقذها الراعى « رابح » وتختبىء فى بيته لتتعالج من آثار سم الثعبان وتستعد لمواصلة الرحلة ، غير ان والدها يكتشف مخبأها فيهاجم كوخ الراعى ويتقاتل معه حتى الموت . وترتفع نفيسة فوق المأساة الدموية . وبهذا يشير الروائى الى عنف الصراع بين القديم والجديد ، والى ان الحرية والتقدم والثقافة تتحقق كلها عبر المعاناة الشاقة مع قوى الماضى والتخلف .

من القضايا الاخرى التى تطرحها الرواية ، قضية الارض والتخلف فى الريف الجزائرى . أما الارض فقد عبر هذا الحوار بين « مالك » وأحد الفلاحين عن أهمية توزيعها لحل مشكلات الفلاح الجزائرى والريف الجزائرى: « ومرت بنفسه صورة أحد الفلاحين اثناء مناقشة جرت بينهما بخصوص الارض ، أجابه عن قوله : ان الارض كالنور والهواء يجب ان تكون ملكا للجميع .. أجابه الفلاح وقد أخذ بيده كمشة من تراب قائلا : الهواء والنور

لا تمشي عليهما ولا تمسكهما بيدك كهذا التراب » (ص 179) فهذا هو الحل الذى تقدمه الرواية لمشكلات الفلاح الجزائرى مع ظلم الملاك وكوارث الطبيعة .

وأما التخلف فكم من صور وأحاديث قدمتها الرواية للتعبير عن مدى تخلف الريف الجزائرى . فعندما أصيبت العجوز « الخالة رحمة » بالحمى وأخذت فى الاحتضار ، لم يجدوا فى القرية طبيبا او مركزا صحيا او حتـى قـرص « اسبرين » ، وهو ما انتقدته نفيسة وانتقدت معه الاستسلام للمرض والقدر والموت قائلة : « يا للمأساة ! اننا نعيش فى القرون الوسطى ! » وأضـافت بسخط : « منذ ولدنا ونحن نسمع ان الموت لا مرد له فصار أملنا الثابت فى الحياة هو الموت ! » (ص 155) وتتوافر صور التخلف الاخرى فى الرواية ، من أحاديث الخرافات حول الجن والعفاريت والسحـر والشعوذة ، الى مشعوذ القرية وساحرها الذى أحضره الاب « عابد بن القاضى » لعلاك ابنته نفيسة واجبارها على الزواج بمالك بواسطة السحر والاحجبة والذبائـح . وتتمثـل مقولة الرواية الاساسية فى ان الفقراء هم كل الشعب وانهـم لديهـم كـل الامكانيات للنهوض أو كما قال مالك معلقا على المساعدات التى قدمها الفلاحون الفقراء للمشاركة فى مأتم العجوز الفقيرة الخالة رحمة : « هم الشعب ، هؤلاء الفقراء .. آه أو عرفوا فقط قوتهم الحقيقية واستعملوها كما ينبغى لادركوا ان الارض مهما كان أديمها فهى صالحة للخصب » (ص 171) .

هذه هى الجزائر الجديدة بعد الاستقلال ، كما صورتهـا روايـة « ريـح الجنوب » للروائى العربى الجزائرى عبد الحميد بن هدوقة ، من خلال طرح الصور المعبرة عن قضايا الريف الجزائرى وإيمانه الى ضرورة مواصلة الثورة، لتحقيق العدالة الاجتماعية ، والقضاء على التخلف ، وافساح المجـال للجيـل الجديد وللمرأة الجزائرية ، للمشاركة فى صنع جزائر المستقبـل العربيـة المتقدمة .

وبعد ، لقد اكتفيت فى هذه الدراسة بتقديم الملامح الاساسيـة فـى هـذه الرواية العربية الممتعة والمشوقة ، كما عبر عنها الكاتب بفنه الروائى الجميل ومضمونه التقدمى الجرىء . وتجنبت التلخيص ، لانه يضر بهـذه الروايـة الثرية . فكم من الصور الجميلة يفسدها العرض والتلخيص ، وكم فى هذه الرواية من ضروب الخيال والابـداع لا تتكشـف الا لقارئهـا ، اللمسـات الرومانسية . آفاق الخيال ، المشاهد البصرية لمناظر الريـف الجزائـرى ،

والصور السمعية للاصوات المختلفة في ذلك الريف . أصوات الريف والضفادع والكلاب والذئاب ، الاصوات الصاعدة من القرية ، صوت الراعي والموسيقى المنبعثة من نايه . هذه الاصوات القريبة من الطبيعة والمعبرة بدورها عن الريف الجزائري : « فهناك أولا صوت الريح الجنوبية التي يسمونها (القبلي) وهو صوت يشبه الغضب ولكن ما يوحى به ليس الثورة بل الحزن ، العزلة ، الخوف ، الموت .. وهناك صوت الرعد وهو صوت يشبه العنف والقوة والجبروت ، يوحى لسامعه بالثورة على كل شيء لا تؤدى فى النهاية الا الى الخراب . والرعد فى سماء هذه القرية تكثر زياراته فى أوقات الحصاد حيث تقترب آمال الناس من الوصول الى تحقيقها فيقضى عليها بما يرسل على الغلال من رصاص (البرد) وأمطار .. وهناك أصوات الحيوانات الداجنة المؤنسة ، وهناك أصوات بعض الطيور التى لم يدفعها فقر القرية للجلاء عنها وفاء لمواطنها .. ثم هناك أصوات الذئاب .. فكل أصوات القرية اذن من طبيعتها وحياة اهلها . واذا كانت الاصوات قليلة ليس فيها المصنوع فحياة السكان أيضا ليس فيها ما يبتعد عن الطبيعة » (ص 101) هذا المزج بين الصور البصرية والصور السمعية هو من أجمل ملامح الشكل الروائى عند عبد الحميد بن هدوقة ، يضاف اليه تصويره الجميل للحظات الابداع الفنى عند الفنانة التلقائية الريفية « الخالة رحمة » ، ولحظات المتعة الموسيقية التى يتلقاها الراعى الفنان « رابح » عندما يعزف موسيقاه العميقة على نايه البسيط ، وما يشيعه فى نفسية البطلة القلقة « نفيسة » من مشاعر وأفكار التأمل ، وما يطلقه فيها من آمال كبار لريف جزائرى جديد ، وانسان جزائرى جديد (*) .

أحمد محمد عطية

(*) فى نطاق التواصل بين الآداب العربية والتعريف بالادباء والمفكرين فى أجزاء العالم العربى تم الاتفاق بين الساهرين على مجلة الموقف العربى المصرية والمسؤولين عن مجلة الفكر أن ينشروا فى آن واحد دراسة أو مقالة تصدر فى احدى المجلتين . وفى هذا العدد اختارت لنا مجلة الموقف العربى مقالا عن عبد الحميد بن هدوقة من الجزائر . يصدر فى المجلتين واخترنا لها مقالا للاستاذ محمد مزالى نشر فى عدد ديسمبر 1978 من مجلة الفكر . هذا علاوة على التعريف الاشهارى المتبادل .

أصداء الفكر

• جريدة العلم المغربية تستجوب الاستاذ محمد مزالى :

أجرت جريدة العلم المغربية فى عدد 29 نوفمبر 1978 استجوابا للاستاذ محمد مزالى وزير التربية القومية ومدير مجلة الفكر حول اصلاح التعليم فى تونس وبين الركائز التى ينبنى عليها هذا الاصلاح من ربط التلميذ بالمحيط وتعريب تدريجى للبرامج مؤكدا أن الاصلاح لم يكن مغامرة بل تلبية لضرورة حتمية وتطور لا مناص منه حتى أن النتائج الاولى تشير باجماع المربين والاداريين الى تحسن مستوى التلاميذ فى كل من العربية والفرنسية .

• مجلة المصور فى حديث لها مع الاستاذ مزالى :

أجرت الكاتبة المعروفة أمينة السعيد مندوبة مجلة المصور حديثا مع الاستاذ محمد مزالى فى عدد 2825 بتاريخ غرة ديسمبر 1978 حول السلبيات التى يعانى منها بعض الشباب العربى ودور أولياء الامور فى تربية الابناء وكذلك دور المناهج الدراسية العربية وتنظيم الاسرة وتعليم العربية .

• لمجلة الفكر دور ريادى :

فى جريدة بلادى الصادرة بتاريخ 13 نوفمبر 1978 كان موعد مع الاديب عبد الواحد ابراهم تحدث فيه عن شؤون الادب ومشاغله . وسأله الشاعر الشاب محمد أحمد القابسى عن رأيه فى أهم مؤشرات الادب التونسى الذى عايشه مدة سنوات عديدة في اطار مجلة الفكر فأجاب عبد الواحد ابراهم قائلا :

« عملت ضمن أسرة مجلة الفكر ست سنوات كانت كلها خصبا ونماء لتجربتى الادبية ... وسوف لن أضيف الى ما يعرفه الناس جميعا عن الدور الفعال الذى تقوم به هذه المجلة فى حياتنا الثقافية والادبية ... فقد صار ذلك من الحديث المعاد ، وانما أحب الاشارة ــ الآن وقد انقطعت، عن الفعل المباشر

فى المجلة الى انه ما من اناء ينضح فى تونس بما يتفاعل فى نفوس الكفاءات الادبية الشابة بقدر ما يقع ذلك فى مجلة الفكر ... والى انه ما من تشجيع ورعاية تلقاهما هذه الكفاءات كهذا الذى تبذله الفكر ... دون رغبة فى جزاء أو شكور .

واذكر ان الخطوات الاولى لكل الشباب الحاضرين على الساحة الادبية بدأت فى ارض (الفكر) ومن هنا يمكن اعتمادها كمعيار للقيم الناشئة ... موجة بعد موجة ... والحكم بالتالى لها او عليها .

وكم كانت التجربة ثرية عند معايشى لحياة المجلة ... فمن خلالها رصدت براعم عديدة واعدة ارجو ان تستمر وتتفتح وتكون عند وعدها بالعطاء ومن خلالها ايضا عانيت وخز الشوك الذى لا بد ان يحيط بكل الورود .

واذ يكون من السهل الاستنتاج بأن عدد الورود أقل كثيرا من عدد الاشواك ... الا ان البديهة تقودك ببساطة الى ان الورد مهما قلت كميته هو أكثر نفحا واوفر عطاء .

يبقى الاهم من كل ذلك جميعا ... هو ان الانتاج وفير ... وان صلة الاجيال غير منقطعة ... وان فى التربة خصب وعبقرية ...

المشكل هو ان نبقى على الثابت والصالح ونرعاه !

• الاستاذ محمود المسعدى ينال الميدالية الفضية لليونسكو :

اغتنم الدكتور الصادق المقدم رئيس مجلس الامة فرصة مناقشة ميزانية وزارة الشؤون الثقافية ليحيى الاستاذ محمود المسعدى ويكرمه بمناسبة اسناد الميدالية الفضية له من قبل منظمة اليونسكو على ما قدمه من خدمات طيلة أربع سنوات إثر انتخابه فى اللجنة التنفيذية لهذه المنظمة . وقد أجاب الاستاذ محمود المسعدى بكلمة أبرز فيها ما قام به من خدمة للثقافة العربية الاسلامية.

ونحن نهنىء الاديب الكبير على هذا التكريم المزدوج من المنظمة العالمية ومن الشعب التونسى عن طريق مجلس الامة ونتمنى له الصحة والعافية لمواصلة إثراء الادب التونسى وبالتالى العربى الانسانى .

• **تهانينا للاديب محمد المرزوقي :**

تكريما للادباء جميعا من أبناء تونس في شخص الاديب محمد المرزوقي اسندت له وزارة الشؤون الثقافية جائزة الدولة التقديرية .

ونحن إذ نهنىء الاستاذ المرزوقي لا يسعنا إلا أن نكبر هذه اللفتة الكريمة من طرف وزارة الشؤون الثقافية بعد طول انتظار الى الرجال العاملين في حقل الادب والثقافة بكفاء واستمرار مثل الاديب محمد المرزوقي خلال حياة مليئة بالعطاء الادبي على امتداد اربعين سنة تزخر بالدراسات التراثية ، والكتابات عن الادب الشعبي ، ودواوين الشعر التي كان يضعها على الساحة الثقافية بين الفينة والاخرى . والقصص القصيرة والحكايات الشعبية وتاريخ الوطن وأخبار النضال التحريري من أجل بناء وطن مجيد .

وقد ترأس لجنة إسناد الجائزة الدكتور محمد اليعلاوي وزير الشؤون الثقافية بحضور الاستاذ محمد مزالي رئيس اتحاد الكتاب التونسيين والاساتذة عبد القادر المهيري وجعفر ماجد والعروسي المطوي والطيب العشاش والحبيب الجنحاني وكان قرار اللجنة بالاجماع وهذا لما يدخل البهجة على نفوس الادباء ويحفزهم على مواصلة الخلق والانتاج .

• **محمد مزالي عضو مراسل بالمجمع اللغوي بدمشق :**

بلغنا ان السيد محمد مزالي مدير مجلة « الفكر » ووزير التربية القومية قد عين عضوا مراسلا لمجمع اللغة العربية بدمشق .

وقد صدر في هذا الشأن قرار يحمل توقيع الوزير السوري للتعليم العالي الدكتور شاكر الفحام ، وتوقيع رئيس مجمع اللغة العربية الدكتور حسني سبح .

والملاحظ ان الاستاذ محمد مزالي يشغل منذ ثلاث سنوات مثل هذا المنصب بمجمع اللغة العربية بالقاهرة .

تهاني أسرة المجلة الى الاستاذ محمد مزالي بهذه الثقة والاعتبار .

• مجلة الأخلاء : ادب . ثقافة . تربية . رياضة :

صدرت مجلة جديدة تحمل اسم « الأخلاء » عن دار الشباب والثقافة بمنزل تميم وتهتم بالادب والثقافة والتربية والرياضة فى جهة نابل .. ويدير هذه المجلة ويرأس تحريرها الشاعر الصادق شرف . وقد جاء العدد الأول محملا بعديد الدراسات والقصائد والقصص والابواب القارة بالمجلة التى منها « من التربية الى الشباب » : وقد التقت المجلة فى هذا الباب بفريق اتحاد منزل تميم لكرة اليد .

ونحن نبارك هذا الوليد ونرجو له الاستمرار وطول العمر حتى يكون لبنة واعية فى هيكل الثقافة التونسية العربية .

• معرض لمجلة « الفكر » بدار الثقافة : احمد خير الدين بباب العسل :

على امتداد اسبوع كامل من 2 ـ 12 ـ 78 الى 8 ـ 12 ـ 1978 نظمت دار الثقافة : أحمد خير الدين معرضا لمجلة « الفكر » دشنه مدير المجلة الاستاذ محمد مزالى الذى ألقى اثر ذلك محاضرة قيمة فى افتتاح مدرسة تكوين الاطارات الحزبية بباب العسل كان عنوانها : **التربية الشاملة :** جاء فيها بالخصوص ما يلى :

ان غاية الحكومات فى كل بلاد العالم الثالث ترمى الى التنمية . وكثيرا ما ترد هذه الكلمة فى خطب المسؤولين واستعمالاتها متعددة ويختلف مفهومها فى تونس عن مفهومها فى غير تونس اذ التنمية عندنا هى الزيادة فى الخيرات وتوفير اسبابها فى جميع المجالات وتوزيعها توزيعا أقرب ما يكون الى العدالة ، دون الاقتصار على الناحية المادية التى يؤكد عليها الاخصائيون من حيث هى الرفع من الدخل القومى الخام ضمن حركة اقتصادية بصفة عامة وقد يهملون التنمية التربوية .. ولقد اثبتت التجارب أن هذا النسق وهذا الاسلوب فى رفع مستوى الشعوب قد يخلان بجوانب عديدة ولا يتحمس الشعب لهما ، ونجد فى بعض البلدان أن التقدم التنموى تراعى فيه المفاهيم المادية فقط وهذه ظاهرة لا ترضينا فنحن نعمل على الاهتمام بالتنمية الشاملة ولا نقتصر على التنمية المادية الاقتصادية .

وهذا ما أدركناه فى تونس منذ الاستقلال فمخططاتنا انطلاقا من المخطط الاول الى المخطط الخامس اعتبرت الانسان فى مقدمة التنمية . فالانسان هو أهم ما فى اغراض التنمية فلم نكتف باتباع نسق تنموى اقتصادى صرف بل

وفرنا الاسباب ، ووضعنا الخطط لتكون التنمية شاملة وأحسن مثال لذلك هي **سياستنا التربوية** .

وللربط بين التنمية والتربية ، أقول : منذ تأسست الحركة الوطنية كان عمل الحزب بقيادة المعلم الاول الزعيم بورقيبة تربويا — وليسمح لي المناضلون الذين عايشوا مسيرة النضال فهم يعرفون كل ذلك عن كثب — فاني أريد أن أخص الشباب بشيء من التحليل نظرا لأني أحاضر بين طلاب مدرسة تكوين الاطارات الحزبية .. لقد بدأ الرئيس بورقيبة لا بالكتابة والخطاب فحسب بل قام بالاتصالات المباشرة بالجماهير للتوعية — وقل أن تجد في حركات النضال من قام من الزعماء بالاتصال بالجماهير قبل الاتصال بالخصم — ولقد كان الاتصال بأفراد الحزب رغم تحجير ذلك من طرف السلط الاستعمارية هو المنطلق الحقيقي لخوض معركة التحرير التونسية .. فتحرير تونس لم يكن هدية من طرف أحد زعماء الاستعمار كما حدث في بعض البلدان .

لقد جاء الاستقلال كنتيجة حتمية لحركة جماهيرية منظمة قضى فيها المناضلون زهرة شبابهم يتصلون بالشعب ويعلمونه التضحية ويعملون على تخليص البلاد من براثن الاستعمار بأسلوب تكاد تونس أن تختص به وحدها إذ يعتبر استقلالنا في ذلك الوقت معجزة افريقيا حيث أن تونس كانت أول أمة احدثت ثغرة في صرح الاستعمار الفرنسي ..

ولما تحقق الاستقلال السياسي قطعنا خطوة في طريق الكرامة فقلنا : إن هذا الاستقلال ما هو الا حلقة أولى من سلسلة الكفاح الذي تواصل بعد تحرير البلاد من مظاهر الاستعمار العسكري ، تواصل ضد الجهل والمرض والفقر والتخلف ولهذا كان الاستقلال **وسيلة لا غاية** وغاية الاستقلال **هي التنمية الشاملة** : التنمية الاجتماعية والثقافية والفكرية بصفة عامة حتى يصبح المواطن واعيا بحق شاعرا بالكرامة ولن يكون مستقلا بحق الا بعد أن يصير قادرا على التصرف في نفسه ومستقبله ومصيره الحضاري .. ولقد كان العدو بالامس مشخصا في الجندي والعلم الاجنبي والدبابة الفرنسية أما عدونا الذي نحاربه اليوم فهو غير مشخص بل هو كان في عدة مظاهر حياتنا ولذلك قال الرئيس بورقيبة : انتهينا من الجهاد الاصغر وشرعنا في الجهاد الاكبر وهو بناء الدولة ودعم استقلالها الاقتصادي والاجتماعي وهذا عمل هائل وصعب .. فنحن بعد الاستقلال التام وجدنا انفسنا نعاني مشقة حمل ثقيل ورثناه عن

الاستعمار انه التخلف الشامل ذلك المعوق العملاق الذى اورثنا إيـاه الخصم بالرغم منا .. فالمعركة إذن جد كبيرة .. وعدونا هذا اكثر عتادا وعدة ونحـن مطالبون باستئصاله من الانسان التونسي ومن هنا نصل الى التربية التى هى الطريق المثلى للقضاء على غول التخلف المخيف والوصول الى التنمية الشاملة.

ماذا قدمنا فى المجهود التربوى ؟

تعتبر تونس فى مقدمة دول العالم الثالث التى أولت اهتماما أكبر للتربية واليكم بعض الأرقام الدالة على ذلك .

تطـور نسبـة انتشـار التعليـم

ـ الاطفال الذين هم فى سن السادسة :

1978	1956
83 %	50 %

ـ الاطفال الذين تتراوح أعمارهم بين 6 و 13 سنة :

1978	1956
75 %	35 %

تطـور عـدد التـلاميـذ منـذ الاستقـلال

1978	1956	
1.010.000 (40 % بنات)	209.400 (28 % بنات)	**الابتدائى**
230.000 35 % بنات	31.000 22 % بنات	**الثانوى**
30.000 30 % بنات	2.300 16 % بنات	**العالى**

	1956	1978
مناظرة الدخول سنة أولى ثانوى	4.442	54.000
شهادة المهنى	93	11.715
الباكالوريا	250	7.230
شهادات عليا	50	3.500

تطور المعاهد

	1956	1978
الابتدائى	729	2.470
المدارس الثانوية ومدارس الترشيح	59	202
المعاهد والكليات	5	54

استنتاجات :

1) **فى نطاق التنمية :** وفر هذا النظام التربوى للشباب التونسى حق التعلم .

2) **التعلم :** مكن الشباب التونسى من مستوى تعليمى عصرى تقدمى متفتح .

3) **تقدم الشباب :** خلق هذا النظام التربوى فرص الارتقاء الحضارى والتقدم العلمى والتكنولوجى للشباب التونسى .

4) **النمو المطرد :** اصبحنا نلمس النمو المطرد للمجتمع التونسى ولقد آثرنا هذا المجتمع الواعى على المجتمع المتخلف .. ولقد رضينا بأن يكون كذلك صعب التسيير على أن يكون ذلولا سهل الركوب يطمع فيه الاجنبى وانه للمجتمع الاقدر على صيانة هذا الوطن العزيز لتبقى تونس حرة مستقلة أبد الدهر .

وهل معنى ذلك أن النظام التربوى التونسى هذا لا يشكو بعض الصعوبات ؟ كلا أنا لا ادعى أن التعليم وصل الى المستوى الذى نصبو اليه بل نحن نسير نحو هذا المستوى بخطى ثابتة لنصنعه كما نريده أن يكون عربيا تونسيا متفتحا يتقدم معتصما بأسباب الاصول الحضارية ويمد سواعده الى شماريخ شجرة التنمية الشاملة لبناء الدولة الصامدة المنبثقة من شعب مستقبلى النهوض ناضج المسيرة . ثابت الحضور .

• مدير جديد لدار الثقافة ابن خلدون :

عين القصاص الشاب الصديق عبد القادر الحاج نصر مديرا لدار الثقافة ابن خلدون خلفا للاستاذ عبد القادر القليبى نتمنى لصديقنا فى منصبه الجديد النجاح والتوفيق ونحن واثقون ــ لما امتاز به من نشاط وحيوية ــ من أن حصيلة اعماله ستكون ثمرة طيبة في حقل الثقافة ببلادنا.

• الجائزة التقديرية للآداب للدكتورة عائشة عبد الرحمن :

قرر المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية برئاسة الدكتور حسن اسماعيل وزير التربية والتعليم والبحث العلمى والثقافة اسناد الجائزة التقديرية فى الآداب للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) .

تهانينا الخالصة للاديبة التى أثرت الادب العربى الاسلامى بكتبها المتعددة ومحاضراتها الكثيرة .

● كتاب المجالس والمسايرات للقاضى النعمان :

أهدانا الاساتذة محمد اليعلاوى وابراهيم شبوح كتاب المجالس والمسايرات للقاضى النعمان بن محمد والمتوفى سنة 363 هـ. الصادر عن كلية الآداب والعلوم الانسانية وقد انكبوا ثلاثتهم على تحقيقه فاتى فى طبعة رائقة ضخمة (650 صفحة). ولا يخفى ما لهذا الكتاب من أهمية كبيرة تكشف من خفايا الدولة الفاطمية ومنهاجها فى الحكم ورؤيتها لامور الدنيا والدين . شكرا للاساتذة على هديتهم وتمنياتنا الخالصة باطراد هذا النوع من الانتاج .